



Bibliotheca Alexandrina



0118893

أَيْنَ نَحْنُ الْيَوْمَ
؟

ایرہیم ہاشم قلائی

این سخن الیوم ؟

رابطہ الأدب الحدیث

مطابع
دارالكتاب العربي بمصر
محمد علي النياوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحجاز الذى هو الوطن الأول للإسلام . والذى فيه قبلة المسلمين ومشاعر حجبهم ومسجد رسول الله . يجب أن يحتفظ بسلطانه الروحى ومكائنه التاريخية المجيدة . ولا يتمكن الحجاز من الاحتفاظ بهذا السلطان وتلك المكانة . ما لم يكن مصدر إشعاع قوى ، لا للمسلمين فقط ولكن للعالم بأسره .

ذلك لأن الإسلام الذى برغت أنواره من ربوع الحجاز لم يكن ديناً إقليمياً أو عنصرياً أو قبلياً ، ولكنه دين إنسانى عالمى . والإسلام ليس كغيره من الأديان الأخرى . فهو لا يقتصر على العبادات فقط . بل يتخذ من العبادات التى افترضها أداة لتهديب النفس وتصفية الروح ليهبىء الإنسان للعمل على حل مشاكله والتغلب على نوازعه ونزعاته . ليكون حله لمشاكله حلاً سليماً سامياً يستوى فيه الأحمر والأصفر والأسود والأبيض . فالعبادات التى افترضها الإسلام وسيلة لغايات أعلى . وأهداف أسمى .

فالإسلام — مثلاً — يأمر بالمساواة المطلقة بين الناس جميعاً . لكن النفس البشرية . بما علق فيها من أدران ونقائص . لا تستجيب إلى تحقيق المساواة ما لم تتخلص من أدرانها ونقائصها .

فَشَرِّعَتِ العبادات فى الإسلام . لتخليص النفس البشرية من ذلك . والرقب الدائم ، أو المناعة الدائمة التى تقى النفس الإنسانية من شرورها . أو العودة إلى شرورها هو تكرير العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وغير ذلك من الفروض والنوافل التى أوجبها الإسلام أوحث عليها .

وآيتنا على أن العبادات وسائل لغايات أسمى قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » : وقوله عليه السلام « خير ما يتقرب به العبد إلى ربه كلمة حق عند سلطان جائر » أو كما قال . وقول الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

فالغايات السامية ، والأهداف العليا ، التي جاء من أجلها الإسلام بيئة واضحة في الآيات الينيات التي يزخر بها القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الوثيقة الصلة بروح القرآن الكريم . وقد فهم كل ذلك الحجازيون السابقون للإسلام فهما لا التواء فيه ولا عوج . فتمثل فهمهم للإسلام في أقوالهم وأفعالهم ، حتى لكان أشخاصهم وذواتهم استحالوا إلى كلمات قرآنية كريمة ماثلة فيهم . فأقبل الناس على الإسلام رغبة لا رهبة ودخلوا في دين الله أفواجا .

وقد جعل الله بلادنا مثابة للناس وأمناً . فيجب أن تكون فيها حرية إسلامية كافية ليثوب إليها الناس . ويجب أن يكون الأمن فيها شاملاً فلا يخاف فيها إنسان — أى إنسان — على نفسه ، ولا على ماله ، ولا على عرضه ، ولا على عقيدته ولا يخشى فيها من إجحاف أو ظلم أو إرهاب أو جور يمس . ويجب أن تكون فيها العدالة الاجتماعية سائدة والعدل فيها محققاً . ويجب أن تكون الشورى في الحكم هي الدعامة الأولى التي تركز عليها جميع الأحكام والنظم في جميع مرافق البلاد .

ويجب على أبناء هذه البلاد أن ينفضوا عن أفكارهم ، وعقولهم ، المفاهيم التقليدية العمياء للإسلام . ويتخلقوا بأخلاق القرآن . ويأخذوا بالأسباب الصحيحة التي تصل بهم إلى حياة صحيحة مبرأة من الضعف منزهة عن العيب ، مشرقة بالنور . وبذلك يستطيعون أن يجعلوا الحجاز مصدر إشعاع قوى للإسلام . وبذلك وحده يصبح الحجاز مثابة للناس وأمناً كما جعله الله .

إن كثيراً من الناس يصمون الإسلام بما ليس فيه . والذين يصمون به بذلك فإنما هم يحكمون عليه بحالة المسلمين . وقد يكون لهم العذر إذا خاطوا بين المسلمين والإسلام فنسبة المسلمين للإسلام جعلت منهم عنواناً له . وليس لغير المسلمين غيره على الإسلام تدفعهم للبحث عن حقيقة الإسلام وتصحيح الأخطاء التي فهمت عنه . ولا تقع التبعة في كل ذلك إلا على المسلمين أنفسهم . وهم المسؤولون أمام الله وأمام التاريخ عن هذه الوصمات التي ألصقت بالإسلام زوراً ولا تزول الأخطاء العالقة بأذهان الذين يجهلون الإسلام بتأليف الكتب وإلقاء الخطب والمحاضرات . فما أكثر الكتب وما أكثر المحاضرات وما أكثر الخطب التي نأخفت عن الإسلام ، وصدت غارات المغيرين عليه . إنما السبيل الوحيد لإزالتها هو تحقيق معاني الإسلام في بلادنا وتحقيقها في معاملتنا وتحقيقها في كل شؤوننا ما جل منها وما صغر أو بعبارة أخرى إحالة المعاني الإسلامية إلى أشخاص حية . ذلك وبذلك وحده — إذا كنا مخلصين لديننا — ندفع عن الإسلام كيد الكائدين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله في أرضه .

أما أن يكون هذا النور محصوراً بين دفتي المصحف . وتبقى دفتا المصحف مطبقتان على ذلك النور ، دون أن نستضيء به في الظلمات التي نحن فيها . فتلك هي الإساءة التي تفرع كل إساءة لحقت بالإسلام وتلحق به في مستقبل الأيام .

وإذا كانت المسئولية تقع — في ذلك على كافة المسلمين ، فالحجازيون يأتون في المقدمة . لأن المفروض فيهم أن يكونوا أحرص من غيرهم على التمسك بالإسلام ومعرفة روحه والعمل على تطبيق مبادئه وتشريعاته والتخلق بأخلاقه . ذلك لأن الحجاز قبلة المسلمين إليها يتجهون ، وبها يلوذون . فإذا لم يجدوا في مشرق النور نوراً . وفي مهد الأمن أمناً ، فلا يعودون على أنفسهم كثيراً باللائمة لأنهم يرون في أبناء الحجاز أسوة يتأسون بهم في تقصيرهم عن أداء واجبهم نحو الإسلام .

إن العبا الملقى على عواتقنا نحو الإسلام ثقيل . ولكن الله الذي لم يتخل عن أسلافنا الذين حملوا العبا راضين . ووهبوا أنفسهم وأموالهم للإسلام ووقفوا بجانب

رسول الإسلام ثابتين ثبوت جبال الحجاز الشوامخ . لا يتخلى عنا . والله الذى أظهرهم بالحق حتى دانت لهم الدنيا . والله الذى اختص بالعزة نفسه وخص بها رسوله والمؤمنين . ما زال ولن يزال يرعى بعينه من يعمل لنصرته ورفعته دينه . فلنعمل لذلك إن كنا عاملين . وسيدل الله — ما عملنا له — ذلنا بعزته وضعفنا بقوته . وسينصرن الله من ينصره .

إن بلادنا يجب أن تكون مصدر إشعاع إسلامى قوى باهر . فإن الإنسانية اليوم فى حاجة ماسة لأن تفيء إلى أمر الله ، لتخلص مما هى فيه من قلق واضطراب ولتبتاعد بينها وبين الحروب الذرية المدمرة .
فعلى المسلمين أن يحملوا المشاغل لتبصر الإنسانية طريق الخلاص مما هى فيه من شقاء وحيرة .

إن الرأسمالية أثقلتها قواها الطاغية وسيأتى طغيانها عليها ويقوض أركانها . والشيوعية لا يمكن أن تدوم لأنها نظام لا يتلاءم مع طبيعة النفس البشرية وما فى هذه النفس من إشراقات علوية تبتقى فيها من ناحية . وغرائز تابعة من تكوينها لا يمكن أن تتخلى عنها ، من ناحية أخرى . وهى تميل إلى اشباع الناحيتين . وفى الإسلام وحده ما يرضى النفس الإنسانية مادياً وروحياً . دون أن يطغى جانب على جانب .
فقد وضع الإسلام . . نظاماً للحكم فجاء هذا النظام منزهاً عن مساوئ كل النظم التى عرقتها البشرية منذ خلقها الله إلى يوم الناس هذا . ووضع نظاماً للتعليم إرضاء لغريزة النفس الإنسانية . ولكنه تنزه عن كل مساوئ التعليم فى النظم الأخرى . وكفل الإسلام كرامة الإنسان وكل ما يحفظ له هذه الكرامة مدى الدهر ، وضمن للإنسان الحرية فى معتقده وفى تفكيره وفى عمله ، ولكنها حرية لا تبذل فيها ولا انحلال ، ووضع نظاماً وتشريعات فى القضاء وفى المواريث ، وفى المعاملات الفردية ، والمعاملات الأومية بما يكفل للإنسانية حريتها ورخاءها واستقرارها ، وأمنها وسلامها

وجعل الرقابة على كل ذلك لضمير الإنسان ، وضمن لهذا الضمير حياته بما فرض من عبادات يؤديها الإنسان في أوقات منظمة ، ومواعيد محددة ، لئلا تنصرف نفسه عن مراقبة الله في أعماله . وخلق الجريمة بحيث لا تجد لها متنفساً فقفى على أسبابها بإعطاء كل ذى حق حقه أولاً ، ثم سن لها الروادع القانونية ، إذا ساد في المجتمعات ما يقضى على أسبابها ، من العدل في الحكم ، والنسوى في الحقوق ، وتبهيء الفرص وتكافئها للعاملين .

واعترف الإسلام بالمواهب والملكات ، وفتح لكل موهبة وكل ملكة وكل نبوغ إنسانى مجال العمل والنشاط .

وحث على العلم وأشاد بأهله واختصهم بالرفعة ، ودعى إلى القوة والأخذ بأسبابها ، ودعانا إلى التفكير والتأمل المنتجين .

فعلى المسلمين أن يبينوا عن إسلامهم وما فيه من توجيهات إلهية بالأعمال ، وأن يجعلوا من آيات الله البينات شخوصاً حية يلمسها الناس في حياتهم ، ومحسونها في أعمالهم ، ويرونها بأعينهم ، وبذلك يؤدون ما يريد الله منهم ، ويكونون كما جعلهم الله أمة وسطاً ، وشهداء على الناس .

وبعد ، فإننى أقدم لأبناء القبلية خاصة والمسلمين عامة فى كتابى هذا بعض المحاضرات التى ألقيتها فى أماكن مختلفة فى الحجاز وفى مصر ، وبعض المقالات التى سبق لى كتابتها فى بعض المجلات بالحجاز ومصر . وبعض الأحاديث التى أذيعت من راديو مكة المكرمة ، وكلها تنتظمها فكرة واحدة استولت على ذهنى وملكت على مشاعرى ، تلك هى تحرير المفهوم الإسلامى مما علق به من ركام الأجيال المظلمة والدعوة إلى الإسلام « المصنى » من كل شهوة ومن كل غرض ومن كل هدف غير الحق . الذى يريد الإسلام ، ورب الإسلام ، ونبي الإسلام ، فدين الإسلام دين الإنسانية الخالد يريد من أبنائه أن يغيروا من خط سيرهم ، وينظروا للإسلام النظرة

الواعية الفاهمة المخلصة ، فإن كثيراً من الآراء لصقت بالإسلام وأصبحت منه وهو برىء منها ، وكثير من الأعمال أرتكبت بإسم الإسلام والإسلام برىء منها ، وكثير من الخرافات ألصقت بالإسلام والإسلام يخافها حتى ساءت سمعة الإسلام ووصم بما ليس فيه ، وتركت أمور بحجة أن الإسلام يأمر بتركها وهى من صميم الإسلام . . . فعلى الذين لا يرون ما أراه مما جاء فى هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم ، أن يناقشوا فيه مناقشة منزهة عن الهوى والغرض والتقليد وأن لا تأخذهم العزة بالإثم ، فإن الحق أحق أن يتبع .

ولتكن أخلاقنا فى الأقوال والأعمال أخلاقاً قرآنية ، وبذلك تخرج المناقشة عن الميل إلى الهوى ، والاتصار للنفس ، والله أسأل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه .

وأخيراً فإنى أقول :

لو أن المسلمين فهموا الإسلام كما فهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه السابقون ولم يلهم زخرف الحياة الخلاب وزيفها الرخيص عن الحقائق العلمية والعملية التى تزخر بها آيات القرآن الكريم . لا اكتشفوا الكهرباء قبل اديسون . والأثير قبل ماركونى . والذرة قبل أن يكتشفها علماء أوربا . وقبل أن يكتشف علماء الطب فى أوربا ميكروبات الأوبئة الفتاكة كالطاعون والكوليرا والتيفيد والمالاريا وغيرها من الأمراض ولعرفوا طرق علاجها والوقاية منها بزمان بعيد . ذلك لأن الإسلام منذ بزوغ أنواره على الأرض دعى للعلم وأباح موارده لكل الناس بعد أن كان العلم محظوراً إلا على فئات خاصة . وأمر باتخاذ القوة . وطبيعى أن القوة ليست فى الجهل . والعزة لا تتأتى لأحد إلا إذا كان قويا . والقوة والجهل ضدان متناقضان . وحيثما وجدنا الجهل وجدنا النلة والهوان والظلم والطغيان والبؤس والحرمان والفقر والمرض . وتلك هى أخطر الآفات التى لا يرجى معها حياة بله العزة فى الحياة .

إن نهضة أوربا ووثبتها هذه الوثبة البعيدة في مختلف النشاط الإنساني لم تكونا إلا بعد اتصال أوربا واحتكاك أبنائها بالمسلمين . وقد فهم الأوروبيون الدين الإسلامي — كما يجب أن يفهم — فكيفوا كثيراً من نظامه وتشريعاته في بلادهم بما يتلاءم مع ذهنيتهم . وإن جحدوا فضل الإسلام وتعاليمه العالية الرفيعة . فإنما جحدوه تعصباً وعناداً . وإن كانوا يحاربون أهله ويعملون إلى إبعادهم عن الوصول إلى حقيقته وصولاً مثمراً فلأنهم يخشون من وثبة المسلمين ووقوفهم موقف القوى المنيعة في وجوههم ذلك هو سر محاربتهم للإسلام والمسلمين في السر والعلانية .

إن ديننا هو النبراس الذي يضيء لنا طريق الخلاص مما نحن فيه من ذلة وهوان وانتقاص .

فيجب أن نفهم الإسلام فهماً صحيحاً وعلينا أن نعلنها حرباً شعواء على كل من يحول بيننا وبين أخذنا بأسباب الحياة الصحيحة لنقف مع الأحياء ، ولا نقف مع الأحياء أنداداً متساويين إلا إذا حاربنا المرض وحاربنا الفقر وحاربنا الجهل وحاربنا التعلق بالزيف الرخيص والمجد الزائف في شخص كل متعلق بهما . إننا نريد أن نفهم الإسلام والإسلام يريد منا أن نفهمه . وذلك ما يريده الله فلنحقق إرادة الله بالفهم الصحيح . والعمل الصالح . ولنتق الله في ديننا ، وفي أمتنا ، وفي أنفسنا ، والله مع المتقين ؟

أين نحن اليوم (*) ١٩

نعم أين نحن اليوم ، من عالم اليوم ؟ ولكي أجيب على هذا السؤال الذي دار بخليدي زمنًا طويلاً يجب أن أ ألم بحقيقة الواقع لأعرف بالضبط أين نحن من عالمنا ؟ .
إنني فرد من هذه الكتلة الضخمة التي يقال لها : العالم الإسلامي . ولكل فرد في هذه الكتلة حق التفكير فيها وفي مصيرها ، ومعرفة موضعها بين مواضع مثيلاتها من الأمم المتكتلة .

وذلك الحق من الحقوق التي منحها الإسلام لكل فرد من أبنائه « فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وما دام الإسلام أعطانى هذا الحق فلماذا أمتنع عن أخذه ؟ .

إن الذين يثبطون العزائم بقولهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » لم يفهموا هذا الحديث النبوي الكريم حق الفهم ، أو أنهم يفهمونه ولكنهم يموهون على الناس الحقائق ، متخذين من الحديث الشريف أداة للتصويه والمغالطة . كيف يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص إذا كان إخوانه في العقيدة ووضعهم في الحياة لا يعنيه ؟ إن « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » لا يعنى أكثر من الحث على حسن سلوك المسلم مع إخوانه المسلمين في حياتهم الداخلية الخاصة ، فإن ذلك لا يعنيه حقيقة في كثير أو قليل مالم يطلبوا إليه العناية والاهتمام بذلك . أما حياة المسلمين العامة فيجب أن يعنى بها كل فرد من أفراد المسلمين بدافع من نفسه ، ويفكر فيها ، ويهتم بها ، ويسهم في خدمتها ، وتقوية بنائها ، والذب عنها . وإلا كان مقصراً في حق دينه وأمته وأبناء ملته .

(*) نشر هذا البحث تحت هذا العنوان بإمضاء (ابن الحسن) في مجلة الثقافة في أعدادها ٦٧٠ في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥١ وفي ٦٧٢ في ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٥١ وفي ٦٧٤ في ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٥١ وكان « ابن الحسن » الإمضاء المستعار الذي كنت أنشر به نتاجي شعراً أو نثراً حينذاك .

إن السياسة العالمية قد انتهت من تقسيم العالم إلى قسمين لا ثالث لهما ، القسم الشرقى وتعنى به الاتحاد السوفيتى ، والقسم الغربى وتعنى به أمريكا وحليفاتها . أما الكتلة الإسلامية فلا تتحدث عنها إلا أنها تبع لإحدى الكتلتين . ولم ترض السياسة العالمية أن تجعلها قسماً ثالثاً ، بل أسقطتها من هذا الحساب . وهى على حق فيما ذهبت إليه — كما هو منطقها — أو كما هو منطق الواقع — لأن كتلتنا لم تثبت جدارتها لأن تكون معسكراً ثالثاً له ما للمعسكرين من قوة تدعو إلى الاحترام . وكلا المعسكرين الشرقى والغربى عدو لدود للآخر بحكم نظامه الإدارى والاقتصادى ، فالنظام الرأسمالى لا يمكن أن يهادن النظام الشيوعى ، والحكم الأتوقراطى عدو الحكم الديموقراطى ؛ ولا يمكن أن يلتقيا بوجه من الوجوه . وكلا المعسكرين مخلص لفكرته ومبادئه إخلاصاً لا يردده شئ عن التضحية فى سبيل رسوخه وانتشاره بأعلى ما يحرص عليه الإنسان . ولذلك فقد كلا المعسكرين حياة الاستقرار والهدوء حتى صار الناس فى الاتحاد السوفيتى كما قال « فيكتور كرافتشنكو » فى كتابه آثرت الحرية : « يعيشون فى مطحنة ويموتون فى مجزرة » وهو قول لا يصدق على الاتحاد السوفيتى وحده ، لكنه يصدق على الأمم الغربية ، وعلينا أيضاً من حيث الجملة وإن كان من حيث التفصيل يختلف باختلاف نظم الحكم التى تسير عليها كل مجموعة فى فلكتها ، لأن الناس ، إما فى حرب أو فى استعداد للحرب ، وكلتا الحياتين حياة الحرب وحياة الاستعداد للحرب لا تدعو للطمأنينة مطلقاً ، وإن كانت الحياة فى الشرق وفى الغرب — كما هى عندنا زاخرة بالمنغصات مكظوظة بالمآسى ، إلا أنها حياة تختلف عن حياتنا اختلافاً بيناً ؛ فهى حياة لفكرة ، حياة واعية عالمة لا تنقصها اليقظة فى جميع مراقبها ، حياة الذين يملكون أمورهم ويعرفون مواضع أقدامهم ولا يتخطون أهدافهم ، ولا يسمحون للغش والخداع والزيف أن يغشى أبصارهم فيعميها عن الغرض الذى يسعون له والفكرة التى يعيشون لأجلها ، ولم يسمحوا لبريق الحياة الزائف أن يلهتهم كما التهمنا .

إن المجموعة الإسلامية تقدر بأكثر من ثلثائة مليون نسمة تنتشر في بقعة كبيرة مترامية الأطراف ولهذه البقعة شأن خطير من حيث موقعها الممتاز ، وخصب تربتها ، وغناها بمناجم الفحم ، وآبار الزيت ، وكنوز الذهب والفضة ، وكافة الخامات التي لا تستغنى عنها مطالب الحياة الحديثة بوجه من الوجوه في زمن السلم وزمن الحرب ، ومع هذا فقد ألغتها السياسة العالمية من حسابها كمعسكر ثالث يخشى خطره ، أوله خطره على الأقل . فلماذا ألغتنا من الحساب ؟ والجواب على هذا السؤال سهل ميسور لوضوح وبداهته ؛ فمجموعتنا لا تعتنق مبدأ من المبادئ المتطاحنين ، فليس لها روح الحماس الذي يدفع للأخذ بأسباب القوة التي تفرض الاحترام والخشية على الغير . وليست هي متحمسة للدين الذي تحمل اسمه وتزعم أنها من أتباعه ومعتنقيه وأنها صاحبة وحاميته . وكيف تتحمس لدين تجهله جهلاً فاضحاً بالرغم من انتسابها إليه ؟ إن مجموعتنا كما يبدو لنا ، لا تعرف من هذا الدين إلا اسمه ، ولا تفهم من تعاليمه إلا طقوساً كطقوس النصارى ، وإلا رسوماً شكلية لا تغنى في بناء الأمم شيئاً .

وإن أى مجموعة في الدنيا لا تحمل فكرة تعمل لها ولا تتخذ مبدأ تعيش من أجله لا يمكن أن يكون لها في الحياة خطر أو شأن .

ومثل هذه المجموعة التي افتقدت روح الحماسة لدينها ولم تتحمس لأى شيء آخر ، لا تصلح إلا لأن تساق إلى ميادين القتال دفاعاً عن أى مبدأ من المبادئ التي يدين بها الأقوياء ، من ذوى الحماسة للأفكار والعقائد . فإذا استطاع الاتحاد السوفيتي امتلاكها جندها راغمة للدفاع عن المبدأ الشيوعي ؛ ويصح العكس فيما لو استطاع المعسكر الذي يقابله امتلاكها . وقد استطاع كلا المعسكرين أن يقبض على ناصية الجماعة التي تحاذيه من الكتلة الإسلامية ويسخرها لأهوائه ويقذف بها في أتون الحرب المشتعلة دفاعاً عن فكرته . ووقف الصينى المسلم والقرغاني المسلم يصوب رصاصه إلى أخيه المغربى المسلم والسنغالي المسلم والسودانى المسلم في ميادين القتال ، كما رأينا ذلك في الحربين العالميتين . . وكما رأينا الهنود المسلمين يجمعون الحركات الوطنية المسلمة

في العراق ، والسنگال المسلمين يقمعون إخوانهم المسلمين في سوريا ولبنان ليخضعوهم
لفرنسا وبريطانيا ، فخطرنا من حيث إننا وقود لحروبهم وجنود لقمع الحركات المعادية
لهم غير منكور عند راسى السياسة العالمية العليا .

فنحن إذا ادعينا الإسلام فإن كلا المعسكرين — الغربى والشرقى — يعرف مدى
ما فى هذا الادعاء من حق وصدق ، فما هو بالجاهل حقيقة دعوانا ، وما هو بالجاهل
أيضاً حقيقة ديننا وما ينطوى فيه من نظم وتعاليم . فكلا المعسكرين يعرف الإسلام
حق المعرفة ، كما يعرف المسلمين معرفة تامة ؛ فقد كان بين الشرق والغرب من جهة ،
والعقيدة الإسلامية وأصحابها الأولين من جهة أخرى ، تاريخ طويل لنضال عنيف
استمر أجيالا طويلة . وقد أضنى هذا النضال — الذى لا يكاد ينتهى حتى يتبدىء —
الغربيين والشرقيين على السواء . فلمسلمى الشرق مع قياصرة الروس ملاحم عنيفة
ما زال التاريخ محتفظاً بها ، ولمسلمى الغرب ملاحم أكثر عنفاً مع أوروبا كلها ، ما زالت
ذكرها ماثلة فى الأذهان .

وقد رأى الغرب أن يتجه — بعد هذه الملاحم — اتجاهاً آخر لهدم العقيدة
الإسلامية فى قلوب معتقديها يكون أسهل منالاً وأبعد أثراً . وكان هذا الاتجاه هو
مهاجمة العقيدة فى معاقلها من قلوب المسلمين مهاجمة لينة ولكنها خبيثة فتاكة ؛ وفعلوا
فقد كانت أفئك من الجيوش الفتاكة التى كانت تساق لقتالنا فى حرد وحقد فى عقر
بلادنا أيام الحروب الصليبية الطاحنة . لقد هاجمونا فى تؤدة ، وصبر ، وأناة ، هجوماً
ليناً رفيقاً هادئاً بكل طرائق اللين والركة والهدوء ، حتى استطاعوا قتل الحماسة الدينية
فى نفوسنا وإبادتها إبادة ذريعة مفرعة ، فلم يعودوا يخشون سلطانها . وقد أصبحت
عودة الحماسة للدين رجعية وجموداً ودعوة إلى الهمجية ، والاستمساك بها استمساكاً
بالعادات القديمة التى لا تصلح إلا للعرض فى المعارض والمتاحف ، وصارت أصوات
القائلين بالعودة إلى الإسلام أقوالاً لا تصلح إلا لأن تتبدد فى الهواء .

لقد عمد الغربيون إلى الدعائم الأولى في الإسلام والتي هي مبعث الحماسة في القلوب وأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم حتى ذكوها في قلوب أجيال منا ، واستطاعوا أن يستهووا ببريق مدنيّتهم جماعة من كل مجتمع إسلامي ويكوّنوا منها طبقة من الحكماء والعلماء لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وإلا هذه الأطلال الدارسة من هذه البنايات التي أقيمت تحت ستاره ، وجعلوهم حفظة عليها وسدنة لها ، وأمدوا هذه الطبقة المختارة بكل أسباب القوة وأحاطوها بكل أنواع الإغراء ، وبذلك صرفوا المسلمين عن معاناة البحث عن جوهر الإسلام وروحه ، فاكتمى هؤلاء الحفظة بالاعتصار على اتخاذ القرآن تراويل وأنعاماً يتغنى بها في المآتم والأفراح ، وافتتاح الحفلات واختتامها ، وجعلوا مقامات الأولياء وقبور الصالحين محل عنايتهم واهتمامهم ، لتكون هذه الأماكن وما بquam فيها من مراسيم ملهية تتلمهى بها الجماهير المؤمنة بذلك إيماناً تقليدياً ، ولتساق الجموع بهذه المراسيم المحتفى بها إلى حيث يراد لها أن تساق باسم الإسلام وتحت ستاره ، وقالوا : هو هذا الإسلام ، والويل لمن خرج عن ذلك ، ومهدوا للخرافة والأضاليل الطريق لغزو الأفكار والأفئدة ، فاعتنت بالقشور وحظر على المسلمين السلوك في طريق الحياة الصحيح بالفهم السليم والعقل المتبصر لتعاليم الإسلام الصحيحة ، ومن سلك برغم ذلك الحظر المضروب طريق الصواب وجاهر به رمى بالخروج على الملة والمروق من الدين .

وأمدت الطبقة الحاكمة طبقة العلماء السائرة في موكب الهدم بكل ما يجعل هؤلاء العلماء في الطليعة ، والجمهور تخدعه المظاهر ، فصارت الزعامة الروحية ملكاً لهم لا تتعداهم إلى غيرهم ودانت لهم المجتمعات حتى ساقوها إلى هذا المصير الحزن .

لقد تأمر هؤلاء العلماء ، وهؤلاء الحكماء — أو هكذا يبدو لنا — وما زال يبدو لنا أنهم متآمرون مع أعداء الإسلام الصرخاء في الشرق والغرب على اغتيال الإسلام واغتيال بنيه ، وقد تم هذا الاغتيال منذ أمد بعيد ، ولم يبق إلا اغتيال بلاده وخيراتها واستصفاء ما فيها استصفاء نهائياً ، واغتيال تلك القلوب التي لم يزل

فيها شيء من الحنين إلى حياة الإسلام الصحيحة ؛ وها هي ذى بلادنا بفعل هذه الحرب الخبيثة الماكرة آلة تتنازعها أيدي الأقوياء المسيطرين على زمام السياسة العالمية يحركونها كيفما شاء لهم الهوى، وكيفما شاء لهم الطغيان ، ينتقصون من أطرافها، ويعطونها لمن شاءوا ، كيفما شاءوا ، وصرنا في ديارنا كالحول والأجراء ! أستغفر الله كالأرقاء في ضيعة كبيرة ، نشقى بالعمل الدائب لسعادة مالك الضيعة ، ولا يهتمنا من مالك الضيعة ! لأننا لسنا أصحاب عقيدة تجعلنا نحب ونكره ، ونعمل أو لا نعمل ، وكيف يتسنى لنا أن نهتم بالسؤال عن صاحب الضيعة التي نعمل فيها بعد أن غزت عقولنا الضلالات وقبضت على أعناقنا أيدي التآمر والمؤامرات ؟ وما أشبه حكامنا بالحارس الذي لا يهتم إلا بإرضاء من هيأ له العيش الناعم ، والكرسى الوثير ، والتحكم في الجماهير تلك هي حالة كتلتنا أو مجموعتنا الإسلامية في كل بقعة من بقاعها دون أن نستثنى شبراً من هذه البقعة المترامية الأطراف التي تسكنها ؛ ذلك هو موضعنا اليوم من عالم اليوم . . . ولم يبق لنا محل لأن نسأل — بعد هذا السؤال الذي بدأنا به كلمتنا — أين نحن اليوم ؟ .

لقد عرفنا مما تقدم أين موضعنا من عالم اليوم . وليس أماننا إلا الاعتراف بهذا الواقع المر الأليم ، وعدم المكابرة فيما آلت إليه حالتنا من سقوط لهيئتنا ، واستصغار لشأننا ، وإن كان يعز علينا الاعتراف بذلك والمجاهرة به خشية الفضيحة والهوان ، فإن المكابرة لا تغير الحقائق أو تبدل فيها ، بل تزيدنا هواناً على هواننا وفضيحة تضاف إلى سجل فضائحنا الكثيرة ، لأننا نبدو أمام أعيننا وأعين الناس فاقدي الإحساس والتميز . وتلك مصيبة كبرى لا تبلى بها إلا الشعوب الميتة .

وعلىنا إذ أردنا أن نبعد عن أنفسنا هذه الوصمة ونثبت أننا ما زلنا أحياء أن ننظر إلى أمرنا نظرة جادة مخلصمة تلمساً للخلاص من الوهدة التي تردينا فيها والخللاص لا يكون إلا إذا كنا نعيش لفكرة ونحيا من أجلها ونعمل لها ونضحى بكل غال ورخيص في سبيلها — كما هي حياة الأقوياء من حولنا في المشرق والمغرب ؛ وأماننا

فكرة الشيوعية ، وفكرة الديمقراطية الغربية ، وفكرة الإسلام . فلننظر إلى أقرب هذه الفكر الثلاث ، وأسهلها تناولاً . ثم بعد إمعان النظر فيها نتخذها عقيدة نجاهد دونها بالنفس والنفيس ، ونحميها بالدماء والأرواح ، متساندين متكاتفين ، بحيث لا ندع في صفوفنا ثغرة واحدة يتسلل منها الضعف إلينا . . إن كل فكرة من الفكر الثلاث — الشيوعية والديموقراطية والإسلام — لها مقوماتها وتعاليمها كعقيدة لا يمكن لجوهرها أن يتجزأ . وليس من الأصالة في الرأي أن نأخذ من كل فكرة جزءاً لنقيم لنا بناءً وثيقاً شامخاً ؛ ذلك لأن البناء الشامخ الوثيق لا يقوم على مواد متنافرة ليس من طبيعتها التلاؤم والاندماج . وأي بناء يستقيم بالترقيع والتلفيق والتنافر بين أجزائه ؟ . والعقائد لا تصل إلى القلوب ولا تتغلغل في النفوس إذا لم تنتظم الحياة بكل ألوانها في نظامها وتعاليمها ، لتكون حياة الأفراد والجماعات منسجمة في ظواهرها ومظاهرها ودقائقها وجلالها .

ونحن إذا نظرنا إلى الشيوعية لا نجد فيها ما يستهويننا أو يغرينا بالليل إليها ؛ ذلك لأن قلوبنا وأرواحنا تنبذها نبذها للعار والإثم . ومع ذلك فإنها كفكرة فهي غير واضحة لأنها فكرة غير عملية . وقد وقف القائلون على تنفيذ تعاليمها موقف العاجز عن التطبيق ، وأمام هذا العجز عدلوا عن كثير من تعاليمها إلى تعاليم أخرى . وقد أحدث ذلك تدمراً واستياء بالعين في نفوس المحكومين على الحاكمين . وأصبحت اللجنة الموعودة جحياً يحترق فيه المؤمنون بالشيوعية قبل الكافرين في الاتحاد السوفيتي نفسه .

أما فكرة الديمقراطية ، فهي على ما فيها من خلاصة مغرية فقد صحنها وخبرناها مدة غير قصيرة . وقد انصرفت نفوسنا عنها وامتلات قلوبنا حقداً وموجدة عليها ، لأننا وجدناها مناققة تخفى تحت خلابتها المغرية خداعاً قتالاً في ضعفها ، وجبروتاً وبطشاً عند قوتها ، فهي كاذبة فاجرة داعرة لا ضمير لها ولا عهد ولا ذمة ؛ تدعى حب الإنسانية ، وحب المساواة والعدالة ، ولكنها عند اقتضاء ذلك منها لا تضع

الناس في ميزان واحد ، وإنما هي ذات موازين مختلفة ؛ فالجنس الأبيض هو الجنس المفضل في منطقها ، وهو الذي يجب أن يسود وأن يتحكم ؛ أما الأجناس الملونة فهي لا تستحق الحياة إلا إذا كانت مربوطة في عجلتها كما يربط أي حيوان أعجم بالمركات والحارث ، وما عليها بعد ذلك أن تتهم النازية بهذا الخلق في الوقت الذي تصنع فيه صنيع النازية ؛ وتسوقنا للحارثتها . وفي جنوب إفريقيا يظهر هذا الخلق في أبين مظاهره وأبشعها ، وزنوج أمريكا وهنودها شهود على مبلغ ما ينالهم من عدالة هذه الديمقراطية وإنسانيتها ؛ وللمرتادين أوروبا من الأجناس الملونة قصص وحكايات تدل على مبلغ ما وصلت إليه الإنسانية الديمقراطية من التدلى والانحطاط اللذين يبدوان كظهير من مظاهر الاعتزاز والاستكبار اللذين تمتلئ بهما قلوب البيض الديمقراطيين .

وليست هذه الأعمال أعمالاً فردية يقوم بها الأفراد فيسيئون بها إلى سمعة الديمقراطية ، ولكن الديمقراطية تشرع هذه الأعمال في أنظمتها وقوانينها ، وهي مطمئنة القلب مرتاحة الضمير ، مقتنعة الشعور بأن مآلاتيه عمل فاضل لا غبار عليه من نقص أو نقيصة ، فالقانون يعاقب الرجل الأبيض إذا عامل الهندي معاملة للمثل بالمثل ، وقاتل الهندي الأحمر والزنجي الأسود في أمريكا لا يقع تحت طائلة القانون ؛ وليس أبين بياناً من إباحة الديمقراطية لاغتيال الشعوب ، فإن ذلك لا يحتاج إلى دليل أو برهان ، بل هو حقيقة ماثلة أمام أعيننا بأبشع ما تمثل به الحقائق الكريهة للعيان ، فلا أظن أن نفوسنا بعد هذا تقبل على فكرة الديمقراطية الغربية راضية مختارة ، وإذا أرغناها على قبولها فإنما نكون ذنباً في جسم موبوء ، وما هي الدواعي أو المغريات التي تحملنا على أن نختار مكان الذنب ونضع أنفسنا فيه مرغمين ؟ .

لقد كنا رؤوساً وأقنأ حضارة ، وإن لنا تراثاً ، وليس في طبعنا استخذاء أو تواكل ، ولا ينقصنا الفهم وحسن التدبير ، ولا نشكو من قلة في العدد ، أو جذب في الأرض أو ضيق في المساحة ، وكل ما تحتاجه الأمم لبناء دولتها موفور بصورة لم تتوفر لأحد بمثل ما توفرت لنا .

والإيمانية كفكرة مجافية لطبائعنا ، لأنها فكرة مادية بحتة لا مجال فيها
روحانية الشرق ؛ فليس فيها تسامح عند القدرة ، وليس عندها عفة عند الغنيمة ،
وليس لها وفاء بالعهد ؛ بل ربما تعد كل ذلك من تخريف المخرفين ، وأوهام الحالمين
التي تنافي مقتضيات الحياة على وجه الأرض ، وقد تجد الفكرة المادية مجالاً أو مرتعاً
خصيباً تنمو فيه وتثمر إذا كانت في الغرب ؛ ولكنها لا تجد مثل ذلك المجال
في الشرق ، لأن الشرق ألف تربية الأديان السماوية وتهذيبها ، ولم يسبق له في تاريخه
الطويل أن بنى حياته على الفكرة الفلسفية المجردة ، ولم يكن للشرق كيان أو شخصية
إلا بالدين ؛ ومن ألف تربية الأديان من العسير عليه أن يتحول إلى تربية لا تلائم
طبائع الأشياء فيه ؛ وحينما أنزل الله كتابه وبعث نبيه لم يغفل عن تذكير العرب بأن
ما يدعوهن إليه إنما هو ملة أبيهم « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » .
فلم يكن الإسلام شيئاً جديداً عليهم لم تعرفه آبائهم وأجدادهم ، وإنما هو شيء
عرفه أسلافهم ودانوا به . وقد اتخذ أسلافنا الإسلام عقيدة جاهلوا في سبيلها وعاشوا
لها فنجحوا في حياتهم نجاحاً باهراً .

لكل ذلك فإن فكرة الإسلام والعودة إليها هي الفكرة الوحيدة التي لا يمكن
أن تنقبض نفوسنا منها ، أو نرى في طبائعنا جَنَفاً عنها ، وهي فكرة واضحة لأنها عملية
قد حققها المخلصون لها وجعلوها شيئاً ملموساً فترة طويلة من الزمان .

فهي جذيرة منا بنظرة فاحصة وفطنة متعمقة . وأقول نظرة فاحصة وفكرة متعمقة
لأن الإسلام منى بأناس باعدوا بين الناس وبين ما فيه من إشراق وسماحة . وهو
الآن تحت ركام من الأغراض الدنيئة ، والأفهام السقيمة ، يجب أن ينتقد منها ليبين
واضحاً جلياً للعقول والأنظار .

قد تحس بعض النفوس المسلمة وغير المسلمة في داخلها بالنفور من الإسلام كلما
ذكرت الدعوة إلى الإسلام . وقد يدفعها ذلك الإحساس لمحاربة الإسلام ، وتجنيد
القوى المادية والأدبية لمحاربته . وأخذ الداعين إليه بكل أنواع العنف والقسوة .

ولذلك نرى في المجتمعات الإسلامية مآسى دامية تنفطر لها القلوب أسى و... نأ نزلت بكل نبتة إسلامية قبل أن تؤتي ثمارها الطيبة ، بل قبل أن تشتد ساقها ؛ والقائمون بكبرى هذه المآسى من الذين ينتسبون للإسلام ويعتقدونه . . . ويتخذ هؤلاء الذين يثدنون هذه النباتات الطيبة قبل اشتداد عودها مبررات شتى يبررون بها شدتهم وقسوتهم . ولسنا بصدد تفنيد هذه المبررات ، ولكننا بصدد البحث عن علة هذه الظاهرة في مجتمعاتنا . . . فما الذى يؤلب قوى الشر كلها على الجماعات الإسلامية التى تنبت فى المجتمعات لإصلاحها إصلاحاً يرتكز على العقيدة التى لا يمكن لبناء الأمم والشعوب أن يقوم بدونها ؟؟

إن السبب الصحيح — على ما يبدو لى — لا يمكن فى الحقد على تلك الجماعات وإنما هو كامن فى الحقد على الإسلام نفسه متمثلاً فى تلك الجماعات . فالدعايات المنظمة ضد الإسلام التى تثيرها أوربا وترصد لها الأموال والرجال بكرم وسخاء ، ودسائسها الخفية التى تدسها دساً متقناً فى آدابها وعلومها ، والقوة العلمية والعقلية التى امتاز بها الغربيون أخيراً ، وانتشار النفوذ والسلطان وإتقان فن الحياة فى حالتى السلم والحرب ، كل ذلك عمل عمله فى النفوس والأفكار، حتى تزعزع موضع الإيمان من قلوبنا. وما كان لهذا الإيمان أن يتزعزع لولا أن هناك ما هو أهم من ذلك ، وهو الذى مهد لهذا الغزو القتال الفاتك طريقه إلى مكن العقيدة . لقد أطل الإسلام علينا بعد عصوره الأولى بصورة لا يمكن أن تهش لها النفوس ، وليس فيه ما يغرى على الاستمسك به كدين ودولة ، لأننا رأينا فى صورة طواغيت مستبدة تثد الحرية وتحتكر الفكر ، وتتحكم فى الضمائر ، وتسفك الدماء البريئة ، وترتكب أشنع أنواع المظالم ، وإذا قيل لها اتق الله أخذتها العزة بالإثم . وأطل علينا فى صورة دويلات هزيلة تقوم هنا وهناك ترتكز على النعرات الطائفية أو الإقليمية المقيتة ، وتؤجج نار الأحقاد والضغائن بين أبناء الملة الواحدة ، أو الوطن الواحد بأعمالها وتصرفاتها . وأطل علينا فى صورة أشخاص يظهرن بمظهر المحتضن للدين الذاب عنه القائم عليه ، ويجعلون وجه الحياة أسود قائماً

وآفاقها ثقة قاتلة تحت ظلالهم . . . وأطل علينا في صورة طرائق صوفية تصرف
ناس عن الحياة ، ولا تعنى بشئونها ، وتغمس أتباعها في لجة سحيفة من الشطحات
والأوهام والأحلام المنافية لحكمة وجود الإنسان على وجه الأرض . وأطل علينا
في صورة مؤلفات صفراء تطمس العقول وتأكل الأعمار دون أن تفيد في الحياة
والأحياء بشيء ينفعهم . وأطل علينا في صورة تكايا وأربطة تغص بمجموع الكسالى
والمتبطلين يزيدون المجتمع أثقالاً على أثقاله بالإففاق عليهم ، بحجة أنهم صلحاء المسلمين
وخيارهم . وأطل علينا في صورة علماء ضيق الصدور والعقول واسعى الأردن والعالم
متزمتي السيرة والأخلاق ، لا يبالون أن يحكموا بالكفر على كل مخالف لهم . ولم تزل
في مجتمعاتنا من هؤلاء بقايا يحرمون علوم المنطق والفلسفة والجغرافيا والفلك والكيمياء
والتشريح والرسم والنحت والتصوير والموسيقا والشعر . وأطل علينا في صورة جدل
مذهبي عقيم لولا ما ينتجه من المباعدة بين الناس وما يصلحهم . وأطل علينا بصور
عديدة كثيرة كلها تجعل الحياة جحيماً لا يطاق ؛ فليس بدعاً — بعد هذا كله — أن
يتسلل الشعور بالنفرة إلى بعض القلوب إذا ما ذكر الإسلام أو ذكرت الدعوة إليه ،
وليس بدعاً بالتالي أن تنمو بذور الحقد والكراهية على الجماعات التي تنادى بالعودة
إليه . . . وليس بدعاً أن يكون لعمل الدعايات والدسائس المضادة للإسلام تأثيرها
البالغ فينا .

وايس بدعاً أن يقوم بيننا فريق يدعو إلى فصل الدين عن الدولة مقلداً في ذلك
أوربا حينما فصلت الكنيسة عن الدولة ومتأسياً بها ، وليس بدعاً أن يقوم بعض
العلماء السطحيين من المسلمين ، ويؤلفون — مساندة لذلك الرأي — مؤلفات ، تجد
رواجاً وتحديث ضجة . وليس بدعاً أن يجد دعاة المذاهب الغربية والشرقية المختلفة بيننا
محبذين ومروجين لدعوتهم ودعاياتهم . وليس بدعاً أن تنجم في مجتمعاتنا ظواهر مخيفة
مرعبة كالاغتيالات وما يعقب هذه الاغتيالات من فجاج مدمرة . . . إن كل أولئك
معاول هدامة مسلطة علينا من الداخل والخارج . ونحن في حلبة هذا الهدم المروع مدفونين

تحت الغبار والأقماض ، وإن كنا نسير فإنما هو سير الزاهل الذي لا يعرف لسيره وجهة معينة ، مع أننا إذا رجعنا إلى منابع الإسلام الأولى وأزلنا ما حولها من ركام تكاثف عليها بمرور العصور المظلمة والأجيال المنحرفة ، فإننا نجد من البساطة والوضوح والإشراق بحيث لا تجد فيه النفوس ما يصددها أو يصرفها عن الإقبال عليه والإخلاص له ، فضلا عن الحقد والكراهية ونأليب القوى المناهضة .

وهنا يجمل بنا أن نستعرض خطوط الإسلام الأولية التي رسمها أبناء دولته ومجتمعاته .

وأول ما يجب أن نعرفه عن الإسلام أنه دين الفطرة ، والفطرة في التعبير الحديث الطبيعة ، ولا يمكن للفطرة أن يكون دنها مضاداً لها في شيء ، أو تكون تعاليمه مناقضة لطبائع الأشياء ، بحيث تكون تعاليم غير عملية أو غير قابلة للتنفيذ إلا بإرهاقها وتحميلها ما ليس في طاقتها ووسعها .

والإنسان في تكوينه استعداد جعله أكرم ما في الطبيعة من كائنات حية . ولا يستقيم في العقل أن تأتي الفطرة بدين غايته تحطيم هذا المخلوق الكريم بالاعتساف والإرهاق ؛ لأن الإسلام يعترف بهذه الكرامة : « ولقد كرّمنا بني آدم » . ومن هنا نعرف أن الإنسان ليس شيئاً تافهاً في الإسلام ؛ وبمعرفتنا هذه الحقيقة الأساسية نستطيع أن نعرف التعاليم الإسلامية معرفة لا تتجافى مع هذه الحقيقة في شيء ، وما تتجافى معها نستطيع بسهولة أن نتبين زيفه أو عدم أصالته في الإسلام ، ونستطيع أن نعرف أنه من الأشياء الدخيلة على دين الفطرة الذي يكرم الإنسان ولا يعتده شيئاً تافهاً .

وحقيقة أخرى يجب أن نلم بها قبل أن بلتهدنا الحديث عن الخطوط الأولية التي رسمها الإسلام لبناء دولته وسياسة مجتمعاته ؛ هذه الحقيقة هي أن للإنسان عقلاً يفكر وللتفكير أثره البالغ في وجدان الإنسان ، والوجدان القلق الثائر المضطرب عديم الجدوى لا يستطيع أن ينتفع بأطياب الحياة ، ولا يستطيع أن يؤدي رسالته في الحياة

على الوجه المطلوب . والفطرة تواقه إلى الطمأنينة الوجدانية ، لتنصرف طاقة الإنسان إلى كل ما هو مجد ونافع ؛ فكان الإيمان من أولى الواجبات في الإسلام ؛ وإذا امتلأ الوجدان بالإيمان اقتلع الشك والحيرة والخواء من النفس الإنسانية ، واقتلع إلى جانب ذلك كل ما تزخر به النفس من أوهام ومخاوف وخرافات وأضاليل ووسوس تبدد الطاقة ، وتشوب التفكير السليم والفهم الناصع بالعوج والتعكير ؛ وليس معنى هذا أن الإيمان يصادر التفكير أو يقف به عند حد ، لا بل يجعل من هذا الإيمان نقطة ارتكاز يستند عليها التفكير ليؤدي إلى نتيجة تدفع إلى العمل والتحمس له . أما التفكير الذي لا يبنى على قاعدة فهو لا ينتهى إلى شيء دائماً ، ولذلك نجد كل تفكير أدى إلى نتيجة كان مرتكزاً على قاعدة ولو فرضاً . والتفكير عند الإسلام لا يبنى على الفروض والتخمينات ، ولكنه يبنى على إيمان جازم لتكون نتائجه غير قابلة للشك الذى لا نهاية له ولا نفع فيه .

لقد اضطر أفلاطون لبناء مدينته الأفلاطونية الفاضلة أن يبنى تفكيره على خرافة حتى يستقيم له البناء المنطقي ، فكانت مدينته مدينة خرافية غير عملية ؛ ولذلك لم تتحقق فى عصر من العصور . ولكن الإسلام لا يلجأ إلى الخرافات فى إقامة بنائه ؛ ولذلك قامت دولته الفاضلة ردهاً من الزمان أضاء بها تاريخ الإنسانية إضاءة وهاجة غير منكورة ، وما زالت تلك الأضواء واضحة الأشعة تنير لنا الطريق وتجذبنا بقوة إلى سلوكها

والآن يحسن بنا أن نتكلم عن الخطوط الأولية فى الإسلام .

فنحن إذا نظرنا إلى الإنسانية وجدناها شقية بمشاكلها . فإذا نظرنا إلى البؤرة التى تنبع منها هذه المشاكل وجدناها كامنة فى النفس الإنسانية ذاتها . فعمل الإسلام على تطهير هذه النفس وتهذيبها وتربية الضمير فيها ، بمراقبة الله تعالى والخشية منه فى السر والجهر . قال تعالى : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها » .

ثم جعل الحب ، حب الإنسان لأخيه الإنسان الدعامة الأولى التي ترتكز عليها جميع الحلول الصالحة لمشاكله ؛ فيقول الرسول الكريم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أو كما قال .

وبعد أن يهذب النفس الإنسانية ويطهرها ويدعوها للحب ويغريها به يعرفها بأن الناس — كل الناس — سواء « كلهم لآدم وآدم من تراب » لا فرق بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، وبذلك تمحى العنصرية والإقليمية والقبلية بين الناس . ولا يكون الأكرم بين الناس ذا الحسب والتسب ، وذا الثراء والعصية ، وذا الحكم والسلطان ، وإنما الأكرم عند الله من يتقى الله في خلقه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذلك يقضى الإسلام على أكبر جرثومة من جرائم الشر التي تسبب للانسانية معظم ما هي فيه من شقاء . وبطبيعة الحال بعد أن تهذب النفس الإنسانية وترقب الله في السر والعلن ، وتشرق جوانبها بحب الإنسانية وتمحى منها الفوارق العنصرية والإقليمية والقبلية تكون مستعدة لتقبل المساواة المطلقة بين جميع الناس في الحقوق والواجبات . فأقام الحكم على أساس من الشورى . فالشورى تمنع إلى حد كبير الوقوع في الأخطاء ، وإذا وقعت الأخطاء فإن الشورى كفيلة بعدم تكررها ، ومنع الإسلام احتكار الأرزاق ومصادرها أيّاً كان نوع تلك الأرزاق وأيّاً كان نوع مصادرها ، ومنع اكتناز الأموال ، لأن الاحتكار والاكتناز من أكبر الشرور التي تصاب بها المجتمعات الإنسانية ، فمنها ينتشر الجوع والعري والحرمان والبؤس ، وتنتشر تبعاً لذلك الجرائم والشرور والمفاسد بكل أنواعها في المجتمعات الإنسانية ، كما ينتشر الترف والانحلال والتدهور الخلقى في فئة المحتكرين والمكتنزين . وتنشأ في المجتمعات التي ينعلم التوازن فيها والتقارب بين أبنائها في المعيشة مهن دينئة « كالتقوادة » والديانة واحتراف الدعارة ، ويتبدل الإحساس بها فلا تشعر بشرف ولا بكرامة ، بل ولا ترى فيما تأتيه منكراً أو انحرافاً .

والإسلام يحرص على أن لا تقع الإنسانية في مثل هذا الانحلال والتفكك .

لأن أى مجتمع يقع فى ذلك فإنه ينصرف عن جد الحياة إلى هزلها ، ولا يرى أنه فى حاجة إلى علم أو معرفة أو قوة أو أن عليه رسالة .

ثم إذا خالص الإسلام بتشريعاته ومبادئه النفس الإنسانية من كل ذلك . يدعوها إلى العلم واكتشاف الأسرار الكونية التى تحيط به . وقد أودع الله فى الإنسان جرثومة العلم ، « وعلم آدم الأسماء كلها » وأمره بتنميتها ليرى الآيات والمكنونات والمدخرات التى إذا علم أمرها واكتشف سرها يصبح خليفة الله فى أرضه ويسخرها لنفعه وسعادته ويطوى بها الإبعاد ويهيمن على الأرض وما حولها ، ويأمن بقدر الإمكان كثيراً من جوائح الطبيعة وكوارثها ليعيش على الأرض السيد المهيمن عليها فى دعة وأمن واطمئنان .

تلك هى الخطوط الأولى التى وضعها الإسلام لسلامة البشرية وصلاحها وإبعادها عن الشرور والمشاكل .

فهل فى هذه الخطوط ما يمنع الإنسان أى إنسان — عن تعشقها والعمل على تحقيقها ؟ .

لاشك أن كثيراً من الأمم انحدرت إليها عداوة تقليدية للإسلام وللداعين إلى الإسلام الحق . فعلينا نحن المسلمين .. أن نتفهم ديننا لأن المسؤولية تقع علينا قبل أن تقع على غيرنا . لأننا نؤمن به ونعتقد ونود أن تشيع تعاليمه السمحة على الإنسانية بأكملها . ولكننا بعد أن ألصقنا أعمالنا التى هى بعيدة عن الإسلام وروحه بعد السماء عن الأرض بالإسلام قدمناه فى صورة لا ترتاح إليه أنفس الجاهلين به . وللذين يتهمون الإسلام بأنه دين الجور والتعصب ، ودين القتل وسفك الدماء ، بعض العذر فى هذا الاتهام لأنهم حكموا عليه هذا الحكم بما يرونه من أبنائه . فإذا أردنا أن نرد هذا الاتهام فعلى أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا من هذه الحالة المزرية وعلى أن نتفهم روح الإسلام فى تشريعاته وآدابه ، وأوامره ونواهيه ، ونستجلى الحكمة التى أرادها الله من وراء تشريعاته الإلهية السامية ، ونجعل من أعمالنا مرآة صافية ترى فيها روح الإسلام على حقيقتها وبذلك نستطيع أن نكون الكتلة الثالثة التى

تقف شاحخة مشرقة أمام الكتلتين العاتيتين اللتين تتنازعان علينا وتريدان القضاء على البشرية بما تثيرانه من عدوان آثم وحروب مدمرة .

ونحن إذا ضربنا المثل الأعلى في بيان روح الإسلام قولاً وعملاً نصل إلى ما يريده الإسلام منا من إقامة الوحدة العالمية الكبرى لينصرف الإنسان إلى استجلاء غوامض الكون التي ما زال الكثير منها غامضاً على بني الإنسان .

ولست في حاجة إلى أن أبين أين نحن الآن ؟ فنحن الآن لسنا في العير ولا في النفير ، كما يقول المثل العربي القديم . وما جعلنا كذلك إلا لأننا لا نتحمس لعقيدة ، ولا نعيش لمبدأ ، ولا نسير على جادة واضحة .

فإلى أن نفهم الإسلام روحه فهما جيداً ، ونعمل على تطبيق مبادئه في حياتنا نستطيع أن نجلس في الموضع المعد لنا ونكون الأمة الوسط كما جعلنا الله ، ونصير الكتلة الثالثة التي تقف بين المشرق والمغرب وقفة قوية شاحخة . ولقد بدت في الأفق إرهابات تجعلنا نتفائل ونستبشر بمستقبل أمتنا بقيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ٥٢ في مصر صححت كثيراً من الأخطاء . وحدثت تعديلاً كبيراً في الأوضاع والأفكار . فإلغاء النظام الملكي ، وإلغاء الألقاب ومحو الأقطاع الذي هو أفظع أنواع الاحتكار — والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية والعناية بمرافق البلاد والالتفات إلى استغلال ثرواتها المهمة كل ذلك يتفق مع روح الإسلام بل هو المفهوم الصحيح للإسلام . ثم انعقاد مؤتمر باندونج وما أسفر عنه ذلك الاجتماع من قرارات فيها ضمان لحقوق الإنسان وعدم إقرار الاستعمار وإعطاء كل شعب الحق في اختيار مصيره يتفق مع روح الإسلام بل إن الإسلام يدعو لذلك . ثم دعوة مصر بلسان الرئيس جمال عبد الناصر إلى عقد مؤتمر إسلامي في مكة سنوياً يدل على فهم عميق للحكمة الإلهية التي من أجلها فرض الحج في الإسلام . كل أولئك إرهابات تدلنا على أن العالم الإسلامي بدأ يفهم الإسلام على حقيقته — وبدأ يتحلى عن الأفكار المتعفنة التي كانت تهيم على حياة المسلمين . وهذا يجعلنا نتفائل بأن المستقبل لأمتنا . فعلى الواقفين من هذه الأشياء موقف الجود أن يلقوا بجمودهم خلف ظهورهم وأن لا يعيقوا الركب عن سيره الخيث ، وأن يعملوا مع العاملين .

سمعة الإسلام (*)

إن من نعمة الله علينا أن جعل لنا حرماً آمناً . وبيتاً عتيقاً . وأمرنا بالاجتماع فيه كل سنة . لنؤكد وحدتنا أمام الكعبة التي هي رمز الوحدة وتناسح فيها بيننا آمنين في ظل الحرم الآمن .

إن الأمور التعبدية في الإسلام . ليست صوراً شكلية خالية من الروح بل إن كل أمر تعبدى في الإسلام ينطوى على حكمة آلهية سامية . نجنى من ورائها نفعاً عميقاً في أمور ديننا ودنيانا . فإذا لم نعرف للنعمة حقها ، ولالحكمة معناها ، ذهبنا جهودنا ومتاعبنا في العبادات أدراج الرياح لأن الله لا يريد من عبادتنا نفعاً له فهو جلت أسماؤه لا تفيده العبادة ولا تضره المعصية . وهو غنى عن العالمين .

إن حجبنا إلى بيت الله المعظم وزيارة مسجده رسول الله الأعظم صلى الله عليه وسلم واجتماعنا في رحاب الله الفسيحة هذا الاجتماع ، الذى جمع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها في صعيد واحد . وقد تنزهوا من كل شارة تباعد بينهم . فهم جميعاً في عرفة حفاة عراة . يبتهلون إلى الله فى صدق وحرارة هذا الاجتماع على هذه الصورة رمز للمساواة المطلقة بين الناس جميعاً أمام أوامر الله ونواهيه . وإن من أهم ما يجب أن نغنى به وقد جمعت بيننا هذه البقعة المقدسة ، وهيمنت علينا هذه الروح السامية . أن نحرص على سمعة ديننا . وسلامة مجتمعاتنا من كل ما يشينها . وكما تجردنا من المحيط والمحيط ساعة إحرامنا . يجب أن نتجرد من الشهوات والنزوات عند عودة كل منا إلى بلاده . وأن يكون الحج وما ينتظمنا فيه من تعاون وثيق فيما بيننا . واتجاه صادق إلى خالقنا وحرص على أداء هذه الشعائر فى أوقاتها وأماكنها . درساً لنا . تتذاكره ونذكره . عند كل عمل من أعمالنا اليومية فيما بقى من حياتنا .

(*) أذيعت هذه الكلمة من راديو مكة سنة ١٣٧١ . وقد زيد عليها وحذف منها أثناء إعدادها للطبع .

أتمّ تعلون — أيها السادة — أن سمعة إسلامنا قد ساءت . وأصبح الإسلام
السمح يتهم بالجهود والتعصب، وبوصم بالأنحطاط والتأخر . وما كان للإسلام أن يتهم
بتلك التهمة ، ولا أن يوصم بتلك الوصمة ، لولا أن كثيراً من أوهامنا وأغراضنا، وأهوائنا
لصقت به حتى حسبت منه . فقدمنى الإسلام فى كل مجتمع من مجتمعاته بجماعات تنتمى
إلى الإسلام . وتعمل باسمه أعمالاً برباً منها الإسلام . فمن تلك الجماعات جماعات
قصروا تعاليم الإسلام على المظاهر التعبدية . فهم يقيمون الصلاة فى أوقاتها وينظمون
أوراداً صباحية ومساءية ، ويحجون إلى الأضرحة حجهم لبيت الله ومسجد رسوله .
ولكنهم لا يتخلقون بأخلاق القرآن ، ولا يتأدبون بأداب الإسلام فى أقوالهم وفى
أعمالهم . فلا يصدقون فى قول ، ولا يوفون بوعد . ولا يجهرون بحق . ولا يستمعون
إلى نصيحة . ولا يحفلون بعلم ولا يحسنون عملاً .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ، ويصومون رمضان ، ويحجون البيت
الحرام ، ولكنهم لا يؤدون الزكاة أو يحتالون فى أدائها .

ومن الجماعات جماعات يصومون رمضان وقيمون الصلاة . ويؤتون الزكاة
ويحجون البيت ، ولكنهم يجمعون أموالهم من الربا ، والرشوة ، وأكل أموال
اليتامى ومن الاختلاس ، ومن أكل أموال الناس بالباطل .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ويصومون رمضان ، ويحجون البيت
ويقرءون القرآن . ولكنهم لا يغيثون ملهوفاً ، ولا يطعمون جائعاً ، ولا يكسون
عاريّاً ، ولا يعالجون مريضاً ، ولا يعرفون شيئاً من القيم الإسلامية السامية .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان ،
ويحجون البيت . ولكن يحاربون العلم والعلماء . ولا يستمعون إلى نصيحة ولا ينصتون
لحجة ولا ينصاعون لحق ، ويحرمون ما شاء لهم أن يحرموه ، ويحلون ما شاء لهم
أن يحلوه .

ومن الجماعات جماعات يرون آراءهم ديناً يجب أن يتبع . وأشخاصهم آلهة يجب أن تعبد ، ولا يحبون أن يراجعوا في أمر . ولا يستمعون إلى ناصح . ولا يتورعون عن مآثم ، ولا ينصفون مظلوما .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان ويحجون البيت ، ويقرأون القرآن ، ولكنهم لا يعرفون من الإسلام غير إقامة الحدود ، ولا يعرفون متى يجب تطبيق الحدود ؟ فهم يطبقون حدود الإسلام ولكنهم لا يؤدون التزامات الإسلام ويعاقبون المجرم وهم وشركاءه في الجريمة . ومن الجماعات ، جماعات ، وجماعات الخ . هذه الجماعات المنتشرة في المجتمعات الإسلامية هي التي شوهت سمعة الإسلام ، وجعات المسلمين في مؤخرة الأمم يفتك بهم الجوع ، والمرض ، والفقر ، والعري ، والجهل ، وتمتلئ نفوسهم بالذلة ويحيط بهم الهوان من كل جانب .

ولصقت كل هذه المزيات بالإسلام والإسلام منها برىء .

فإن كنا جثنا حقاً فارين من ذنوبنا ، وآثامنا ، نادمين على ما فرط منا من سيئات ، ضارعين إلى الله في ظل البيت العتيق ، متأثرين بأمر الله ونهيهِ ، حريصين على اتباع كتابه ، وهدى رسوله . . إن كنا جثنا لتصفية نفوسنا من الرنق وتطهير قلوبنا من الرجس ، إن كنا جثنا لذلك في إيمان واصرار ، فعلينا أن نعمل على أن نعيد للإسلام جلاله ، وجماله ، باستجلاء الحكمة المنطوية في الأمور التعبيدية ، وحمل أنفسنا على اتباعها ، وتطبيقها في كل صغير وكبير من شؤوننا ، حتى يعود بناء الإسلام بناء قوياً ثابتاً في نفوسنا . وأن لا نسمح للهوى أن يقودنا - كالعبيد - لأسره ، ولا للشهوة أن تهيم علينا ، ولا للأثرة أن تنتزع منا خير ما في نفوسنا ، وأن نتعهد أمام بيت الله على اتباع أوامر الله ، فلا نجبن عن قول الحق ، ولا نحميد عن الجادة . وأن نتحاب في الله ، وأن نتق الله في أنفسنا ، وفي أموالنا ، وفي أعراضنا وفي دمائنا ، وأن

نحب للناس كما نحب لأنفسنا ، وأن نتضافر على تصحيح الأخطاء ، واصلاح الموازين
وتصفية المعاني العالية مما شابهها ، وأن لا نفتال غافلا ، ولا نخلص حقاً ، ولا نمارى في
باطل ، وأن لا نخون في أمانة ، ولا نحيس بعهد ، ولا نعذر بمعاهد ، ولا نخوف آمنة
ولا نبطش بضعيف ، ولا نسكت على منكر ، ولا نهى عن شيء ونأتيه ، ولا نتعصب
لرأى قد يقابله خير منه ، ولا نميل إلى لجاجة ، وأن لا نقول لمجرد القول وإلا كنا
محل المقت من الله « يا أيها الذين آمنوا كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »
ولتسبق أعمالنا أقوالنا .

أيها المستمعون :

إن الإسلام يناشدكم الله وأتم في بلد الله ، ويبعث صوته من كعبة الله ، إلى
المؤمنين بالله أن ترعوا الله فيه ، وأن تخلصوه من الوصمة التي وصم بها ، من كل ما لم
يأمر به ولم يدع إليه ، وأن تكونوا نماذج إنسانية مشرفة ، تليق بمن ينتسب إلى دين
الله ، هذا الدين السمح الخفيف الذي أئقنا الله به من الضلالة ، والجهالة . هذا الدين
الذي ألف بين قلوبنا ، ووجهنا لوجه الخير والحق والجمال والقوة .

أيها المستمعون : إننا بجهلنا ديننا ، وبتهاوننا في أمورنا ، وتعلقنا بالقشور وجبننا
عن مقابلة الحقائق ، وصدوفنا عن الجادة ، صرنا كالقصعة تداعى عليها الأكلة ، فقد
تداعت علينا الأمم . وقد وجد أعداؤنا الثغرة التي نفذوا منها إلى مقاتلتنا ، فاستعمروا
كثيراً من بلادنا ، واقتنصوا جزءاً منها ، وأعطوه لشذاذ الآفاق ، وأقاموا لهم دولة
تلك هي دولة إسرائيل في صميم بلادنا ، وما كان للمسلمين أن يرضوا بذلك لولا أنهم
تفرقوا شيعاً ، بعضهم يتجه إلى المشرق ، وبعضهم يتجه إلى المغرب ، وتالله أن خلاصنا
لا يرجى من مشرق ولا من مغرب ، وإن خلاصنا رهن بأيدينا ، ولكننا جهلنا أنفسنا ،
وجهلنا ديننا ، وتركنا كل أسباب القوة ، ورحنا نتخبط في دياجير الظلمة ، حتى أطبق علينا
العدو من كل جانب ، خذوا أيها المسلمون بأسباب القوة ، فالقوة تكمن في العدل ،
والقوة تكمن في العلم ، والقوة تكمن في الحرية ، والقوة تكمن في الخلق ، والقوة

فى الاتحاد والقوة تكمن فى التفكير ، وكل ذلك دعانا إىله الإسلام ، والإسلام هو الإسلام لم يتغير ولم يتبدل ، والقرآن هو القرآن ، ولكن قارئه اليوم غير قارئه بالأمس ، ومسلم الحاضر غير مسلم الماضى ، لقد بلغ الخلفاء الراشدون والصحابه الأولون بالقرآن حينما كانوا يتلونهُ ويستجلون معانيه ويطبقونها تطبيقاً عملياً من العزة والسؤدد ، مالم تبلغه أمة من الأمم ، كانوا هم المعانى القرآنية تسير على الأرض وتحقق ما أراده الله من عباده المؤمنين . فوهبهم الله مجد الحياة وحسن نواب الآخرة .

فهل لنا أن نعاهد الله فى رحابه المقدسة ، على أن نعمل على محو الصفحات المظلمة من سجل حياتنا ، ونستبدلها بصفحات مشرقة تخرج على ضوئها مجتمعاتنا من حياة الشقاء والذل والعبودية ، إلى حياة السعادة والعز والحرية ؟

إن الإجابة تتوقف على مبلغ إخلاصكم للإسلام ومدى حرصكم على سمعته .

الإسلام دين العمل (*)

أيها السادة: الآن وقد أتممت مناسككم ، وأديتم فرائضكم ، وأرضيتم ضماؤكم حيال ركن من أركان الإسلام ، وتأهبتُم لزيارة نبيكم ، ثم العودة إلى بلادكم ، لا شك أنكم تأثرتم من رحلتكم الروحية السامية التي ما رجوتُم من ورائها نفعاً مادياً ، ولا حطاماً زائلاً ولا عرضاً من أعراض الحياة الفانية ، وحملتُم مع الهدايا الجميلة التي تذكركم بهذا البلد ، ذكريات أجمل تلك هي ذكريات المشاهد الإسلامية الرائعة في ساحة الله الكبرى ، لقد رأيتم هنا في حرم الله ومسجد رسوله . الناس كلهم سواسية
الراعى بجانب الرعية ، والخادم بجوار المخدم . لا يتميز هذا عن هذا بلباس فاخر ، أو أثاث فخم أو دار أنيقة ، رأيتم الناس كلهم عراة حفاة ، متحابين في الله لا تفرق بينهم الجنسيات ، ولا العناصر ولا اللغات . الكل يعمل لكل ، ضحيتُم وطعمتم من أضيحتكم ، وطعم معكم من لم يقدر على الأضحية . بل وطعم معكم من تلك الأضحيات كل ذات كبد رطبة ، ما نقص ذلك منكم شيئاً ، وفي ذلك رمز إلى الرزق الفائض ، والخير العميم وآية على أن الأرض ما شحت بخيراتها ، ولا بخلت بشمراتها ، ولا ضنت بحيواناتها ، ورأيتم أن هذه البلاد ذات الصحارى الجرداء والجبال الصماء ، وسعت هذا الجمع الغفير ، والحشد الحاشد من كل أركان الأرض . فما بات أحد يشكو الجوع ولا تُرك أحدكم في الشمس المحرقة . . ولا قتل أحداً منكم الظمأ ، وما ذاك — أيها السادة — إلا أن الأرواح قد سمت ، والنفوس قد صفت ، والمشاعر قد ارتقت ، فوسع الغنى الفقير بربه . وأمد القوى الضعيف بعونه . ونال العاجز من القادر عطفه . ووجد الضال من يهديه لماواه . ووصل الحجيح إلى مبتغاه ، في نفس اليوم المحدد ، وفي نفس الساعة المرتقبة ، وفي نفس المكان المطلوب . وأنها وإيم الله لمعجزة التعاون ، وفضيلة الاتحاد ، وبركة التوجه إلى الله . وبذل النفس النفيس في سبيل الله .

إنها ذكريات عظيمة لمشاهد عظيمة . وسوف لا تزايل أخيلتكم ، ولا تبارح أفكاركم ، وسوف تتحدث بها نفوسكم في السر ، وتنطق بها ألسنتكم في الجهر ، إنها أثر من أثر النبوة ، ومشهد من مشاهد الإسلام ، وأنه حفل من محافل الدين ، والدين الإسلامي الحنيف لا يختص بهذا التعاون أرضاً دون أرض ، ولا يختص بهذا الاتحاد ناساً دون ناس . ولا يقف في تشريعه على زمن دون زمان . وليس هو بدين مظاهر وشكليات ، وليس هو طقوساً تؤدي ثم لا شيء خلفها . وإنما هو دين الأبد ، وتراث الأجيال ، وناموس الحياة ، يريد الاتحاد لأبنائه تحت كل سماء تظلمهم ، وفي كل مجتمع يضمهم ، وفي كل دائرة تحيط بهم ، فاتخذوا مما شهدت نبراساً تسيرون به في حياتكم ، وهدى تهتدون به في معيشتكم ، وجنة تتقون بها تكالب الأمم عليكم ، وقوة تصدون بها العاديات عنكم . إن الإسلام — أيها السادة — دين عمل ، فإذا أردتم أن تتحدثوا عن هذه الرحلة الروحية الممتعة ، رحلة التجرد من الماديات ، والتحرر من الأهواء والشهوات ، تحدثوا وأتم متجردون عن كل نزعة فاسدة ، وعن كل شهوة غاشمة ، وعن كل غرض فاجر ، تحدثوا بقلوبكم وأعمالكم قبل أن تتحدثوا بألسنتكم المجردة عن كل نية ، البعيدة عن كل همة . . اعملوا وقولوا ، ولا تقولوا مالا تريدون به إلا مجرد القول « يا أيها الذين آمنوا كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

إن الأمم — أيها السادة — حولنا تعمل ، ونحن نقول ، وتخترع ونحن نعجب ، وتصنع الرائع ونحن ننهر ، وتأتي بالمعجزات العلمية والطبية والحزبية ونحن لا نصنع غير تمجير الخطب ، وتديبج المقالات ، وإنشاء القصائد . حتى صار لنا أمام كل حصن عندهم مقال عندنا ، وأمام كل باخرة قصيدة ، وأمام كل مدفع مؤلف ، وأمام كل مصنع خطبة ، وأمام كل مستشفى تمثيلية ، وأمام كل منكنة توشيح ، وأمام كل قبلة بستان ، وأمام كل صاروخ حربي قصر ، وأمام كل مدرعة ثوب فخم . . لا — أيها السادة — لا يريد الدين منا هذا ولكن يريد منا العكس ، ولا يكون لنا كل ذلك إلا إذا نهينا هذا الدرس البليغ الذي تلقناه في أداء مناسكنا ، وخلاصة هذا الدرس تتلخص في كلمة

واحدة هي التجرد ، التجرد من سلطان المادة وأهواء النفس وملاذ الجسد . فالتجرد هو القوة التي تدفعنا إلى الوحدة وإلى التعاون إلى الرحمة وإلى العمل المنتج المفيد . التجرد هو المجد الذي تهاوى أمامه الأجداد الزائفة . التجرد هو العزة التي تمحق الذلة وتبيد المسكنة . التجرد هو الذي يدفعنا للسير إلى الأمام خفافاً لاتعيقنا الفضلات والتوافه عن المثل الأعلى للإنسان الفاضل والأمة الكاملة .

لقد رسفنا — أيها السادة — في أغلال الشهوة أجيالاً طويلة ، ونسينا الله قسینا وذهب بريحنا . فأصبحنا كالأنعام تتخبط في ظلمات الحياة . والعظات تترى علينا ، فلا تتعظ والعبر تمر أمام أعیننا فلا نعتبر ، ولقد آن لنا أن نفيق من غشيتنا . ونستشف من شعائر ديننا منابع العزة ، وموارد القوة ، ففسر في حياتنا متبصرين بنور الله ، مهتدين بهدى رسول الله .

أيها السادة . إن الله تباركت أسماؤه جعلنا أمة وسطاً ، بين المشرق والمغرب ، لنكون شهداء على الناس ، فلما أئتمرنا بأمره واخترنا رضاه على رضى أنفسنا فضلنا على الناس . ولما غيرنا ما بأنفسنا غير الله حالتنا وتركنا كما ترون « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » نعم لقد غير الله ما بنا فلم يعد لنا فضل على الناس ولم تعد لنا هبة بين الأمم .

ما فضل قوم يرى في الناس مجلسهم	في آخر الناس بعد الناس كلهم
وفي القيامة يوم الحشر يسألهم	رب العباد عن التفريط في الذم
أليس ذمته فينا وصيته	(إن تنصروا الله ينصركم) على الأمم
ماذا تقول : إذا ما الله قال لنا	: فيم التهاون في أمرى وفي كلّى ؟
أقذتكم برسولى من مجاهلكم	وأورثتكم بكتابى ملك ذى إرم
ما خست مذكتمو جندى بعهدكمو	وكنت ناصرکم فى كل مختصم
فكيف خستم بعهدى بعد توفيتى	بما وعدت وأرخی جمعکم على ؟

نعم لقد أرخينا راية الله فأرخی الله راياتنا وزحزحنا عن مجلس آبائنا ووضعنا

في المؤخرة . وما كان الله ليحزح أهل ملته وأنصار دينه إلا لضعفهم وتجايفهم عن سلوك الصراط المستقيم وهو تأديب لنا . وإن الله تأديباً في عباده ليعيدهم به إلى صوابهم فقد هزم الله جند محمد يوم حنين إذ أعجبته كثرتهم ، فلما أفاؤا إلى الله وتابوا سرعان ما أيدهم بنصره واكتسبوا المعركة وأصبحوا سادة الموقف .

فإذا أردنا أن نستعيد مجلسنا ونعاود سيرتنا فلنفء إلى أمر الله ولنعد إلى كتابه مسترشدين به . وبذلك نستطيع أن تؤدي الرسالة التي اختارنا الله لحل أعبائها .
هل ترون — أيها السادة — إننا نبليغ ذلك بالأقوال الجوفاء ، أو بالادعاء الكاذب أو بالمخادعة والتزوير ؟ أو ترون أننا نحظى باحترام الأمم ونحن على ما نحن عليه من اختلاف الكلمة والتقصير الذي أؤخذنا عليه وأخشى أن تؤخذ به ؟
لنتجرد — أيها السادة — من الزيف الخادع والبريق الكاذب ، لنتجرد — أيها السادة — من الأهواء والنوازع السيئة والأطماع الويلة . لقد تكلمنا حتى أغثنا الكلام وإذا كان ما مر بنا من رمن لا يسعنا فيه غير الكلام فليكن ما يستقبلنا من الزمن بعد حبنا هذا للعمل . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » جعل الله حجكم مبروراً ، وسعيكم مشكوراً ، وذنبكم مغفوراً . ونسأله أن يمدنا بعونه وتوفيقه على أداء ما علينا من واجبات والقوة على حل ما علينا من أعباء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الرسول

حياة محمد صلى الله عليه وسلم (*)

هذا عنوان لكتاب ألفه كاتب امريكانى يدعى (ر . ف . بودلى) وترجمه إلى العربية الأستاذان محمد فرح وعبد الحميد جوده السحار . وإن لى ولعاً بما يكتبه الغربيون عموماً — عن الشرق وأديانه وأناسه وولعاً أشد بما يكتبه هؤلاء عن شرقنا العربى بوجه خاص . ومنشأ ولعى بذلك ما أراه من طرافة وجدة فيما يكتبه الكتاب الغربيون عنا . ولا يعيننى بعد ذلك ما جاء فيها من آراء وأفكار أو التعليق عليها أو يعيننى ولكن ليس بالقدر الذى يدفعنى للكتابة عنها أو الرد عليها ، إلا ما كان خاصاً بمعتقداتنا .

وقد قرأت كتاب « الرسول » هذا الذى نحن بصدده فوجدت فيه ما يستحق الرد عليه خصوصاً وأن الكتاب حاز رواجاً فى البلاد العربية . ولم أقرأ فيما قرأت من تصدى للرد عليه فى هذه النقاط التى سأتمحدث عنها بالذات .

وقبل أن أدخل فى لباب الموضوع أقف بالقارىء وقفة قصيرة لجلاء بعض الحقائق التى لمستها فى الكتاب الغربيين الذين أتيح لى قراءة مؤلفاتهم المترجمة إلى لغتنا . . لقد اشتهر كتاب الغرب بعمق التفكير وغزارة المادة ودراسة الموضوع الذى يريدون الكتابة عنه دراسة مستفيضة حتى لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من شؤونه . وهذه حقيقة لا سبيل إلى نكرانها ولكن لمست إلى جانب هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنهم لم يستطيعوا على غزارة علمهم أن يتخلوا ولو قليلاً عن ماديتهم وكأنهم اتخذوا من كل أدران الأرض سياجاً متيناً أقاموه حول عقولهم

(*) نشر بمجلة الحج فى غرة جمادى الثانية سنة ١٣٧٠ العدد العاشر من السنة الرابعة وفى العدد الأول من السنة الخامسة الصادر فى غرة رجب سنة ١٣٧٠ .

١ — أن القرآن من تأليف محمد . وهي قولة مكرورة سار عليها كتاب الغرب قديماً وحديثاً وما استطاع بودلى — ولا خلاف بودلى — ممن يكتبون عن الإسلام ونبهه أن يتحرروا من هذا التكرير حتى لكأنه تقليد واجب الاتباع وهو آية الجمود الذهني الذي منى به كتاب الغرب من هذه الناحية وكأن أحداً منهم لم يقرأ الردود الكثيرة التي قام بها الدائدون عن بطلان هذه الفرية . أو هم قرأوها . ولكن عجزوا عن مناقشتها ، وإلا فلماذا نرى بودلى وغير بودلى حياء يلقي بهذه القولة لم يتصد لمناقشة ما كتب من ردود عليها . ؟

لقد سبق أن قلنا أن كتاب الغرب اشتهروا بالدراسة المستفيضة والإلمام بالموضوع الذي يتصدون للكتابة فيه فليس من المعقول — وذلك المشهور عنهم — أن بودلى لم يطلع على تلك الردود ولكن المعقول أن مناقشتها والرد عليها لم يكونا من طوقه فلاذ بالصمت . واكتفى بتقليد الكاتبين في هذا الموضوع من بني جنسه .

وما دام القرآن الكريم تنزيلاً من العزيز الحكيم رب محمد ورب أعداء محمد . فلن يغيره قول بودلى أنه من تأليف محمد . . وما دامت الآية على أنه منزل من الله عجزت الأجيال البشرية عن الاتيان بمثله أو بسورة من مثله فما عسى أن تكون الآية التي تؤيد فرية الزاعمين بأنه من تأليف محمد . ؟ . إن محمداً نشأ أمياً في أمة أمية . وحتى الأمم المتحضرة في عصر محمد لم تصل ثقافتها إلى المستوى الذي يجعلها تلم بكل ما انكشف لأبناء العصر الحاضر من أسرار الكون وآفاق الثقافة فكيف تسنى لمحمد الأمي أن يلم بكل ذلك وأن يشير إليه إجمالاً أو تفصيلاً في مؤلفه . !

وعجيب أن تتسم ثقافة محمد — إذا أغضينا جدلاً — عن أنه أمي بمثل هذه السعة في المعلومات والاحاطة بالكون وأسراره وبمثل هذا الاعجاز في البيان والروعة في الإداء بحيث لا يصل إلى كل ذلك أحد في أمته ولا في الأمم المجاورة التي بلغت شأواً بعيداً في الثقافة . وينفرد دونهم بمثل هذا المؤلف !!

وإذا كان الموضوع موضوع تأليف فما الذي حجب على المؤلفين ممن عاصروا

١ — أن القرآن من تأليف محمد . وهي قولة مكرورة سار عليها كتاب الغرب قديماً وحديثاً وما استطاع بودلى — ولا خلاف بودلى — ممن يكتبون عن الإسلام ونبيه أن يتحرروا من هذا التكرير حتى لكأنه تقليد واجب الاتباع وهو آية الجمود الذهني الذي منى به كتاب الغرب من هذه الناحية وكأن أحداً منهم لم يقرأ الردود الكثيرة التي قام بها الدائدون عن بطلان هذه الفرية . أو هم قرأوها . ولكن عجزوا عن مناقشتها ، وإلا فلماذا نرى بودلى وغير بودلى حياً يلقي بهذه القولة لم يتصد لمناقشة ما كتب من ردود عليها . ؟

لقد سبق أن قلنا أن كتاب الغرب اشتهروا بالدراسة المستفيضة والإلمام بالموضوع الذي يتصدون للكتابة فيه فليس من المعقول — وذلك المشهور عنهم — أن بودلى لم يطلع على تلك الردود ولكن المعقول أن مناقشتها والرد عليها لم يكونا من طوقه فلاذ بالصمت . واكتفى بتقليد الكاتبين في هذا الموضوع من بني جنسه .

وما دام القرآن الكريم تنزيلاً من العزيز الحكيم رب محمد ورب أعداء محمد . فلن يغيره قول بودلى أنه من تأليف محمد . . وما دامت الآية على أنه منزل من الله عجزت الأجيال البشرية عن الاتيان بمثله أو بسورة من مثله فما عسى أن تكون الآية التي تؤيد فرية الزاعمين بأنه من تأليف محمد . ؟ . إن محمداً نشأ أمياً في أمة أمية . وحتى الأم المتحضرة في عصر محمد لم تصل ثقافتها إلى المستوى الذي يجعلها تلم بكل ما انكشف لأبناء العصر الحاضر من أسرار الكون وآفاق الثقافة فكيف تسنى لمحمد الأمي أن يلم بكل ذلك وأن يشير إليه إجمالاً أو تفصيلاً في مؤلفه . !

وعجيب أن تتسم ثقافة محمد — إذا أغضينا جدلاً — عن أنه أمي بمثل هذه السعة في المعلومات والاحاطة بالكون وأسراره وبمثل هذا الاعجاز في البيان والروعة في الإداء بحيث لا يصل إلى كل ذلك أحد في أمته ولا في الأمم المجاورة التي بلغت شأواً بعيداً في الثقافة . وينفرد دونهم بمثل هذا المؤلف !!

وإذا كان الموضوع موضوع تأليف فما الذي حجب على المؤلفين ممن عاصروا

محمداً في أمته وفي غير أمته أن يؤلفوا كتاباً مثله . ؟ أو أن قدرة التأليف — في ذلك العصر — كانت وفقاً على محمد صلى الله عليه وسلم دون سواء ؟

وإذا تخطينا عصر محمد فلماذا لم نجد في خلال ثلاثة عشر قرناً وسبعين عاماً من أجاب التحدى من أعداء محمد وألف مثله أو سورة من مثله . والتحدى قائم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم .

٢ — ويقول المؤلف إن دين المسيحية أكثر روحانية من دين الإسلام . وإني أو من يعيسى عليه السلام ورسالاته . بل الإيمان بذلك ركن من أركان الإيمان الكامل في الإسلام . إلا أن الذى أريد بيانه هنا كرد على قوله هذا ما يتجلى فيه من التحامل على الدين الإسلامى — وهو كما قلنا شأن كتاب الغرب جميعاً — فبودلى في الوقت الذى يؤمن بروحانية الأديان أو أنه يرى أنه يؤمن بهذه الروحانية ينتقص منها في الدين الإسلامى ويجعلها في الدين المسيحى أكثر . وإذا أردنا أن نناقشه بمنطقه يضطرنا لأن نقول له كيف تبين له ذلك . ؟ أتبين له من السلوك الحسن الذى يبدو من أتباع المسيح في معاملة الشعوب والأفراد ؟ أو من التسامح الذى يبدو منهم حيال الزنوج في امريكا ؟ أو مما يلقاه الزنوج هناك من أمن وطمأنينة واستمتاعهم بحقوق الإنسان . ؟ أو من المثل العليا التى افترنت بها الأمم المسيحية فصارت شعارها في معاملة الشعوب الملونة ؟ أو من العفة والزهد في شن الحروب والغارات والاعتداء على الضعفاء ؟ . أو في عدم افتتان المسيحيين بفرض سلطانهم على الناس بالقوة العاتية العشوم ؟ أو من الوفاء بالعهود وعدم خفر الذم للذين اتسم بهما المسيحيون مع الناس جميعاً ؟ أم من الحروب الصليبية التى شنّها المسيحيون على العرب بدافع من الحب المثالى المتجرد عن كل غرض أو شهوة ؟ أم من السلام والرحمة اللذين أنزلهما المسيحيون بالشعب العربى في الأندلس حتى لم يبق عربى ولا مسلم إلا واكتنفته روحانية المسيحيين الأتقياء في ذلك الركن من أركان أوروبا ؟

أما أنه لم يقصد بالروحانية المسيحية التى هى أكثر من روحانية الإسلام كل

ذلك وإنما الذى أرادته تكوين طبقة من القسس والرهبان يصومون عن الطيبات ويحرمون على أنفسهم الزواج فإنه وإن وجد في المسلمين من يحرم على نفسه ذلك ولكنه ليس من الإسلام في شيء إذ (لا رهبانية في الإسلام) وهل تصلح هذه الرهبانية أن تكون مقياساً للروحانية ؟

إن روحانية الإسلام في مراقبة النفس البشرية لباريها في السر والعلن في الأخذ والعطاء في الشدة والرخاء وعدم الميل مع الهوى . وتنزيه النفس عن الحقد والبغضاء والتعدي والابتعاد عن أكل أموال الناس بالباطل وأن يحب المرء أخاه ويحب له ما أحبه لنفسه والدرجة المثلى أن يؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة ولقد استطاع الإسلام أن يبقى في نفوس أصحابه ومعتقيه رغم الأعاصير التي مرت به وبهم . . وروحانيته ما زالت وسوف لا تزال توجه المسلمين في جميع شؤونهم ومهما بدا على المسلمين من سمات الانحراف عن الإسلام فما أسرع ما يعودون إليه لائذين معتصمين بحجته الدامغة ونوره القوى الباهر .

وما هكذا المسيحية فهي ما استطاعت البقاء بتعاليمها وروحانياتها في نفوس أتباعها ولقد جنى عليها أتباعها وارتكبوا باسمها كثيراً من الحماقات . أفمن روحانية المسيحية أن لا تبقى على دين بجوارها كما صنعت قديماً — في الأندلس فمحت كل معالم الإسلام وجعلتها أثراً بعد عين . . ؟ أو من روحانية المسيحية ما يلقاه المسلمون تحت أكناف أتباعها من اضطهاد في فجاج الأرض ؟ في عصرنا الحاضر .

أما روحانية الإسلام فلم تضق يهودية ولا بمسيحية في عصر من العصور وفي أعز معاقل الإسلام وأحصن حصونه . وما أبقى على اليهودية والمسيحية في الشرق العربي إلا روحانية الإسلام السمحة السامية . ولم يعرف عن المسلمين أنهم هدموا كنيسة أو معبداً أو اضطهدوا جماعة لم تدن بدينهم أو أبادوا أمة لم تعتقد معتقدهم أو خفروا ذمامها أو استباحوا حرمتها . وذلك هو المقياس الصحيح للروحانية .

والمقياس العلمى أو الجدلى هو عرض تعاليم الإسلام ومقابلتها بعرض تعاليم

المسيحية ثم المفاضلة بين روحانية كل من الديانتين . أو ترك المفاضلة لذهن القارىء ونقديره أما تفضيل شيء على شيء دون إعطاء القارىء حق الموازنة . فذلك ليس من العلم في شيء . وهى طريقة تتجافى الحق والانصاف أما إذا أريد التدليس والتليس والتعصب للرأى تعصباً لا يستند إلا على المكابرة ونكران الحقائق أو تجاهلها . فذلك أمر لا يحتاج إلى ادعاء العلم والتعاليم وادعاؤهما إمعان في السخف وإغراق في الصغار .

٣ — ويقول المؤلف « وقد أملت الظروف المحلية كثيراً من القوانين الإسلامية فيرجع تحريم الخنزير إلى رداءة المراعى وقذارتها في الشرق فهى أحط من مثيلاتها في الغرب كما أن العرب لا يعرفون طريقة طهيها (ص ١١٣) واقرأ معى أيها القارىء الكريم هذا التحليل السخيف المضحك فلو صدر هذا القول عن ذهنية عادية لاتدعى العلم فهو لا يثير الضحك بقدر ما يثيره صدور هذا القول عن ذهنية تزعم لنفسها سعة الاطلاع ودقة الملاحظة والاخلاص فى درس ما تتصدى للكتابة عنه متى كانت لأوروبا وأمريكا مراعى للخنزير مثل مراعيها فى العصر الحاضر ؟ إن أمريكا التى أنجبت هذا المؤلف عريقة جداً فى الحضارة ومن حضارتها القديمة المعنة فى القدم عنايتها بمراعى الخنازير كالآن سواء بسواء . وأوروبا لم تكن فى جهل مطبق وظلمة دامة حين بزوغ الإسلام كلا . فقد كانت أوروبا وأمريكا فى ذلك الوقت كما هما اليوم وليت كولبس كان حياً ليرى أنه لا فضل له فى اكتشاف أمريكا .

إن صح أن مراعى الخنازير فى أمريكا اليوم نظيفة — كما يقول بودلى — وكانت نظيفة أيضاً قبل أن تكتشف أمريكا . وقبل أن تبلغ أوروبا هذا الشأو فى الحضارة . فإن الإسلام لم ينظر فى تشريعه تحريمها لهذا الاعتبار . ولكن لاعتبارات اسمى مما يصل إليه ذهن بودلى وأمثاله فالحكمة فى التحريم والتحليل عند الإسلام مصلحة الإنسان أياً كان . وفى أى ركن من أركان الأرض أقام . إذ هو دين عالمى لا يتقيد بظروف المكان والزمان . وقد حرم الإسلام الخنزير قبل أربعة

عشر قرناً تقريباً وجاء الطب الحديث باكتشافاته العلمية بعد هذه الحقب الطوال .
فأبان عن الأضرار التي تنجم عن أكل لحم الخنزير : وعرف الحكمة من كان يجعلها
في تحريمه . . أما الطهي فما أظن المغرب إلى الآن يضاهي الشرق في إتقانه .

٤ — يقول المؤلف : « إن جهنم عند المسلمين على عكس جهنم عند المسيحيين
واليهود ليست تعذيباً لانهائياً ولكنه كبيت للتمريض حيث يذهب الناس للعلاج
من الآلام النفسية فإذا ما برؤوا دخلوا الجنة » وإن دلنا هذا القول على شيء فليس
هو إلا جهل المؤلف بالأديان كافة وعدم إلمامه بالدين الإسلامي خاصة . فجهنم التي
وعد بها الكافرون في الإسلام والمسيحية واليهودية واحدة . تعذب أبدي .
أما عصاة المؤمنين فلا يخلدون في النار لثلاث أسباب : إيمانهم وعدم جحودهم بالله
وملائكته وكتبه ورسوله . وإلا فما الفرق بينهم — لو خلدوا — وبين الجاحدين
الكافرين ؟؟ تلك هي العقيدة الإسلامية التي لم يستطع أن يتبينها بودلي .

٥ — ويقول المؤلف : « وما الجحيم إلا تجسيم مشاق الصحراء المحرقة الفاحلة
التي تحيط بمكة (ص ١١٩) وهذا قول لا يصدر إلا ممن يقول إن القرآن من تأليف
محمد فيفترض أن محمداً يجسم المناظر التي تقع عليها عينه . ولكن فات بودلي أن مشاق
الصحراء المحرقة التي تحيط بمكة ليس فيها شرر يتطاير ، وليس فيها ثياب من تار
وإذا كان الجحيم تجسيم لمناظر الصحراء فالجنة تجسيم لمناظر ماذا ؟ . ولكن بودلي
لا يتكلم عن النعيم ، لأنه لم يجد في صحراء العرب ما يصح أن يجسمه محمد للنعيم
الذي لا يجد .

ويقول في (ص ١٣٨) إن إله المسلمين أشد قوة من إله المسيحيين ولأعد
بذهن القاريء إلى ما ذكرناه عنه من القول بأن جهنم عند المسلمين بيت للتمريض
ويقضى قوله هذا بأن يكون إله المسلمين أشد رحمة لا أشد قوة . وإذا أغضينا النظر
عن تناقضه فإننا نشتم من قوله هذا السخرية بالأديان السماوية وإغراقه في المادية
الملحدة وإلا فهو يرى أن الأمر لا يعدو أن تكون الأديان السماوية شبيهة بخرافات

الإغريق الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة : إن المؤمن يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً لا يعتقد بتعدد الآلهة ولا يرى أن لكل ملة إلهاً وإنما هو إله واحد خلق الخلق وأرسل إليهم رسلاً يهدونهم إلى طريق الحق والفلاح .

٧ — ينكر بودلى المعراج ، وما كان لنا أن نهتم بهذا الإنكار لولا أنه يقول إن كل ما جاء عن هذه الرحلة الإلهية في القرآن : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم » ص ١٣٨ ولو تلى بودلى قوله الله تعالى : « فذنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » لتبين له أن في القرآن إشارة إلى المعراج .

٨ — يقول بودلى « ولم يعرف عن محمد لو استثنينا حادثة أو حادثتين أنه انتقم لنفسه من أعدائه المهزمين » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد ما يكون انتقاماً لنفسه أو غضباً لها ولم يعرف المسلمون أنه — عليه السلام — انتقم لنفسه من أحد ، وإنما كان غضبه لله فقط ولو كانت نفسه الزكية تنزع به للانتقام لانتقم من قاتل عمه حمزة . . . ولكن بودلى يرسل أقواله واتهاماته جزافاً دون ما إمعان ولا روية وهذا يحملنا على إساءة الظن به ، ولو كان مبرئاً من الغرض منزهاً عن النية السيئة لساق في عرض حديثه الحادثة أو الحادثتين التي عزا فيها الانتقام أو حب الانتقام الذى يلصقه بودلى سيد الناس المبرء من الأدران المعصوم من النقائص والعيوب .

٩ — كان بودنا أن يترفع بودلى عن الانحدار ولكنه أبى إلا أن يضع نفسه في الموضع المشين إذ يقول : (في ص ٢١١ و ٢١٢ في حديثه عن هند بنت عتبة : « فقد رفضت أن يمسه زوجها أو أى من عشاقها حتى تثار لموت أيها » وإذا كانت البيئة التي نبت فيها بودلى لا تجعله يتصور امرأة بغير عشيق ، أما كان يجدر به أن يبين لنا عشاق هند ؟ أو عشيقاً واحداً على الأقل ؟؟ أما وقد أعياه البحث ولم يعثر لهذه المرأة على عشيق واحد . أفما كان الأجدر به أن ينزه قلبه عن مثل هذا

القول ٤٤ . لم يقل أحد من المؤرخين على كثرة ما كتب المؤرخون عن هند أنها كانت ماجنة أو كانت مربية في سلوكها بل بالعكس فقد أجمع المؤرخون على أنها كانت عفيفة متطرفة في عفتها . في جاهليتها وبعد إسلامها وكانت ذات حساسية شديدة مرهفة جعلتها تحلف على أن لا تعود لزوجها الأول الذي داخلته الريبة في أمرها مما أدى إلى ذهابها مع أبيها وزوجها وجماعة من قومها إلى أحد الكهنة في قصتها المشهورة . وما كان من أمر زواجها بأبي سفيان . بالرغم من اقتناع زوجها الأول ببراءتها وبذل جهده في استرضائها هذا في جاهليتها أما في إسلامها . إققد قالت للرسول صلى الله عليه وسلم وهو قائم يأخذ البيعة من النساء يوم الفتح بأن لا يزني « أو تزني الحرة يا رسول الله ؟ » وهو استنكار المرأة الشريفة المعتدة بشرفها . أمام الرسول الذي يأتيه الوحي من السماء فيخبره بالخبوء والمستتر .. إن هنداً يا مستر بودلى امرأة عفيفة لا يتجه تفكيرها إلى الانحدار وإن ساورتها نفسها به فإن لها من حزمها واعتدادها بنفسها وبأسرتها ما يبعدها عن ذلك . ولكن من أين لنا أن نقنع مستر بودلى بحقائق تعد من خوارق العادات في عقول الغربيين ولكنها من الحقائق الأولية التي لا تحتاج إلى إقامة البراهين عند العقلية العربية المسلمة ؟

هذه هي أهم المآخذ التي جاءت في هذا الكتاب ولولا أن السكوت عليها يجعلنا محاسين عليها أمام الله وأمام ضمائرنا حيال ديننا ونبينا وأسلافنا لوسعنا ما وسع غيرنا من السكوت . ولكن خشية الله هي التي دفعتنا إلى هذا الرد الموجز فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس وما التوفيق إلا من عند الله . وإنتا نرجو من ناشئة البلاد المسلمة أن لا يقرأوا كتابات المستشرقين عن الإسلام ونبي الإسلام إلا وهم متفطنون إلى ما فيها من مغامز ليكونوا لها بالمرصاد ؟

مصر والعرب والإسلام

مصر الدعامة الكبرى التي تركز عليها البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة لأن لها من موضعها الجغرافى ما يجعلها ملتقى الشرق بالغرب . ومن ثقافة أبنائها وتعدد ألوان الثقافة فيها ما يجعلها مصدر إشعاع علمى يمتد إلى آماذ بعيدة كما يقول جمال عبد الناصر . ومن محافظة أهلها على تراث الأقدمين ما يجعلها مرجعاً من أهم المراجع التاريخية . ومن سماحة أهلها ورحابة صدورهم ما يدعها ملاذاً لكل حر وملجأ لكل مضطهد . وقد صار ذلك تقليداً لها منذ القدم ، فلا محالة والحالة هذه أن يكون لأحداثها أصداء تتردد فى الشرق والغرب ويتأثر بها مجرى الحياة فى كل لون من ألوانها . وهى تمتاز على سائر البلاد العربية بميزة تجعلها فى مكان الزعامة أحب من أحب وكره من كره .

هذه الميزة تجمع إلى كل ماتقدم خصوبة أرضها ، ووفرة سكانها ، وارتباطها بالسودان مما يجعل منها ومن السودان بلداً واحداً . وهى على وفرة عدد السكان بالنسبة للبلاد العربية تقل فيها الطائفية المذهبية ، ولا تجد أثراً للنعرات العصبية أو المذهبية فجلمهم سنيون ومعظمهم مسلمون ، ولكن تعيش الطائفية بجانبهم فى حرية وأمن شاملين ، وتواجههم الأدبى والعلمى والفنى والصحفى أكثر وأعمق وأوسع من كل البلاد العربية مجتمعة . ونشاط أهلها فى مختلف الشئون أكثر من نشاط كل الدول العربية مجتمعة . ولها من جمال مناخها واعتدال جوها فى الصيف والشتاء . ورحابة آفاق الحياة فيها ما يجيب العرب فيها .

وكيفما تلونت الحياة فى مصر تتلون الحياة فى سائر أقطار العرب . فتورة مصر الأخيرة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لم تكن ثورة لمصر وحدها وإنما هى ثورة للبلاد العربية بأجمعها . وإذا اختلفت مظاهر هذه الثورة فى البلاد العربية عن مظاهرها

في مصر . فإنها لم تختلف فيما أحدثته من ثورة في المشاعر والأفكار والأحاسيس بل في معاني الأشياء . فإن كثيراً من المعاني كان مفهوماً في الأذهان قبل هذه الثورة بغير المفهوم الذي تقرر في الأذهان بعدها . وكان بعض المعاني مفهوماً على حقيقته عند الطبقة المستنيرة إلا أنه كان غامضاً كل الغموض عند الجماهير . فلولا الثورة ما كان لفضيلة الشيخ محمود شلتوت أن يجهر برأيه الصحيح عن نظام الحكم الملكي في مجلة الدعوة ويقول للجماهير أن الإسلام لا يقر هذا النظام بوجه من الوجوه ، وفي عهد الثورة تبينت للجماهير حقيقة إسلامية ثانية بصورة عملية وهي تحريم احتكار الأراضي الواسعة واستمناع فئة قليلة من الناس بخيراتهما وحرمان الآخرين وخصوصاً العاملين فيها . وتبين للجماهير أن تلك الفئة كانت تسرق لقمة العيش من أفواه الشعب لتتعم بملاذ الحياة وحدها . وذلك أمر لا يقره الإسلام بوجه من الوجوه . والحق أن الإسلام يحرم اكتناز الأموال واحتكار الأرزاق ، ولكن كان هذا المفهوم ضيقاً محدوداً . ولما صادرت الثورة الأموال المكتنزة في قصور الملك والأمراء والأرض المحتكرة التي هي مصدر الأرزاق ووزعته لمستحقيه وأهله من أبناء الشعب اتسع فهمنا للاكتناز والاحتكار . تلك معاني وإن كانت ظاهرة بحيث لا تبهماها الطبقات المثقفة إلا أنها كانت غير مفهومة عند سواد الشعب . وما كان أحد من العلماء والمثقفين يستطيع الجهر بذلك لأن الطغيان كان ماداً رواقه على كل شيء حتى على الضمائر والأفكار بل حتى على معاني الدين الإسلامي الذي تدين به هذه الملايين من العرب والمسلمين . وكان من يشتم منه مثل هذا الفهم للحقائق الدينية الواضحة يتهم بالشيوعية أو بالإلحاد . والخروج عن ملة المسلمين .

فثورة مصر صححت كثيراً من الأخطاء في مفهوم الجماهير للمعاني الإنسانية النبيلة وللحقائق الدينية التي وأدها الطغيان والظلم والجبروت .

ولما كان تيار الثورة المصرية جارفاً قوياً في تأثيره على الناس . فقد أرغم هذا التيار الجارف بعض الذين كانوا ناقلين على الثورة أن ينحازوا إلى السير مع التيار

وإن كان سيرهم وثيداً وبطيئاً جداً لأنهم مسوقون بغير إرادة ، إلا أنهم أدركوا أنهم إن لم يسايروا التيار فسوف يحرفهم معه ولا يجديهم تجافيتهم عنه ولا تمنعهم عليه فتيلاً .

والعرب لا يستطيعون في شتى أقطارهم الانفصام عن مصر . وهم لو أرادوه وعملوا له . فإنهم لا يبوؤن إلا بالقتل . ذلك لأنهم إذا فقدوا مصر ، فإنما يفتقدون أنفسهم ، ولغتهم وتاريخهم ، وأكاد أقول ودينهم أيضاً ، ومالي لا أقول ذلك وخيرة علماء الأمة العربية في الدين وفي اللغة وفي التشريع وفي الحديث وفي علوم القرآن كلها مصريون . وخيرة قراء القرآن مصريون وخيرة الأدباء بل أعلام الأدب العربي والذين تفتخر بهم الأمة العربية مصريون . وما أظن بلداً عربياً يستطيع أن يكتفي بعلمائه ومقرئيه وأدبائه وفنانيه ويستغنى عن مصر ، ومطابع مصر ودور الكتب في مصر . ودور الآثار العربية في مصر هي الحفيظة على تراث العرب وتجديده . ولولا مصر لضاع على الأمة العربية الشيء الكثير مما يعتز به أبناء العروبة والإسلام تلك هي مصر من العروبة ، فإن بعد أثرها ورددت بلاد العروبة أصداء الأحداث التي تجري في مصر فذلك لأن مصر تحتفظ بأكبر مجموعة من أبناء العروبة في واديهما الرحب الفسيح وهي إذ تحتفظ بأكبر مجموعة عربية لا تحتفظ بهم وليس معهم شيء بل تحتفظ بهم ومعهم كل شيء بهم العرب وتعزبه العروبة بين أم الأرض . وما من فاجعة أصابت قبيل من العرب إلا وكانت مصر تقوم بدور البطل المنقذ . والتاريخ حافل بما أثر مصر في هذا الصدد .

ولست بسبيل تعداد مناقب مصر ولكن القلم انساق إلى ذكر ما ذكر انسياقا لم أستطع رده . وإنما الذي أريد أن أقوله أن ما يحدث بمصر له أثره الفعال وصداه المدوي في البلاد العربية . ولقد اهتز الشرق العربي لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

اهتزازاً عنيفاً . وانتفضت الأحاسيس والمشاعر انتفاضة لها أثرها الطيب في مستقبل الشعوب العربية عن بكرة أبيها . وسيكون لهذه الانتفاضة أثرها العميق في دعم صلاتها الوثيقة بمصر حتى تظفر الأمة العربية بما تصبو إليه من منعة وقوة : ومشاركة فعلية في بناء حضارة لشرقية ولاغربية ولكنها إسلامية عربية . فنحن نستطيع أن نحقق ما نريد كما يقول الناصر العربي الشاب ابن مصر جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » .

الحجاز وأثره في الحضارة الإسلامية(*)

... وإذا أردنا العدول عن هذا القول فليس أسهل من القول بما لا يجراً أحد على إنكاره وهو أن الحجازيين هم واضعوا نواة تلك الحضارات المختلفة وهم ممهّدوا السبيل لنموها وازدهارها وهم الذين عبدوا طرق العلم والمعرفة ليجتازها الناس على السواء بعد أن كان التعليم محظوراً إلا على فئات خاصة في كل الشعوب وفي كل الأمم بدون استثناء وذلك بما بذلوه من جهود في فتح البلاد ونشر الإسلام الذي من تعاليمه « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » في مختلف البلاد التي وطّتها خيولهم وبما كان لهم من الأحكام العادلة والسير الفاضلة فشحنوا العزائم الفاترة وأيقظوا النفوس من سباتها العميق وحشوا الناس على اجتياز طرق المعرفة للعمل النافع في الحياة . وإن الباحث عن قوام الحضارة الإسلامية يجد القرآن الكريم منبعها والتشريع الإسلامي مصدرها . فالقرآن الكريم هو أصل العلوم ومرجع المعارف في الحضارة الإسلامية ومحور البحث عند علماءها ولترتيل القرآن وفهمه جاء علم التجويد وعلم التفسير وجر الأخير إلى علوم النحو والصرف واللغة والأدب والبيان والبديع . ومن القرآن وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم : تألفت كتب الحديث والفقه فالتشريع فالفرائض فجر ذلك إلى الحساب . ومن الغزوات النبوية والفتوحات الحمديّة كانت كتب السيرة فالغزى . فالترجم والطبقات — فالتاريخ . ويقضى التوغل في الفتح اتخاذ الحصون واستعمار الأرض ومعرفة الطرق فكان الاعتناء بعلم الجغرافيا بأنواعها لا يقل عن الاعتناء بالزراعة فالري فالمساحة فالعمارة . وقد اختط الحجازيون للغرض نفسه البصرة والكوفة اختطهما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وواسط اختطها الحجاج بن يوسف الثقفي والقيروان اختطها معاوية بن أبي سفيان والفسطاط اختطها عمرو بن العاص وغيرها .

(*) أقيمت هذه المحاضرة بدار الإسعاف بمكة المكرمة في سنة ١٣٥٨ وقد فقد القسم الأول منها .

من البلدان الخالدة والعواصم الضخمة التي شادت بها عزائمهم والتي كانت فيما بعد مهد الحضارة الإسلامية .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه زاهدين في دنياهم راغبين في آخرتهم فوضع المسلمون مبادئ التقشف على هذا الأساس فكان الزهد فالتصوف وتعداه ذلك إلى علوم الكلام كالتوحيد والمنطق والفلسفة بأنواعها . وقد سبقتنا الأنسة مئ الأديبة المشهورة إلى ما يقارب هذا فقالت في كتابها : « المد والجزر » « القرآن مصدر جميع العلوم التي عني بها المسلمون في أوج حضارتهم فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية ثم ألبس : الجغرافيون الأول وعلماء المسالك والآصارهم الذين مضوا من أقاصى أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج وعادوا يصفون رحلتهم وما رأوه من الجديد غير المؤلف ؟ ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آي القرآن وتطبيق قواعد النحو والصرف على نصوصه ؟ ألم تطالب ؟ ارساد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعيد الحج والصوم ؟ ألم تشتت مسائل الوقاية الصحية والنظافة واهتمام الأطباء كما ظلت بعدهم تحثهم على البحث والتنقيب ؟

وساهم الحجازيون في تنمية المعارف والعلوم مساهمة عملية فعلى بن أبي طالب رضى الله عنه أول واضع لعلم النحو وعبد الله بن العاص أول من دون الحديث في صحيفته التي كان يسميها الصادقة . والحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور أول من اخترع التطيب بالموسيقى كما سنبينه في محاضرة أخرى إذا وفق الله . ومعلوم أن المثل العليا للمتأدبين باللغة العربية في جميع العصور ما فاه به الحجازيون الأول ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أبلغ من نطق بالكلام العربي المبين ثم من يليهم من خطباء قريش وفصحاء المدينة وشعراء الحجاز ومن هذا تتبينون — يا صادقي — مدى

إسهام الحجازيين في إقامة صرح الحضارة الإسلامية ومبلغ ما أسداه أبناء هذا القطر المقدس من الخدمات الجليلة في صالح البشر. ولا تحسبنُ الحجاز وقف عند هذا الحد في تموين الحضارة الإسلامية فإنه بعد أن تطاولت عليه دمشق و بغداد واستأثرتا على عاصمة الإسلام الأولى بالخلافة أخذ في إمدادها بغذاء جديد واحتفظ لنفسه بصفحة يذكرها له التاريخ ضمن أعماله التي وفق لإجادتها فلقد نبغ من الحجازيين إمامان جليلان يرجع إلى جهودهما الفضل في ترتيب الفقه الإسلامي وتبويبه وتمحيصه من الآراء المتضاربة والأحاديث المنقولة هما : الإمام مالك المدني وتلميذه الإمام الشافعي المكي . أما مالك فهو أول من بوب الفقه ورتبه ومحصه ووطأ للناس أمور دينهم بموطئه الجليل ومشى على غراره الشافعي وزاد على ذلك باختراعه علم الأصول لمعرفة الأحكام الشرعية . يقول الرازي بعد كلام طويل « استنبط الشافعي رحمه الله أصول الفقه ووضع للخلق قانوناً كافياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع فتثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسططاليس إلى علم العقل لأنه هو الذي فتح هذا الباب والسبق لمن سبق » ويقول الأستاذ المحقق أحمد أمين في « كتاب ضحى الإسلام » : للشافعي الفضل خاصة في تنظيم الإجماع والعمل به وما يصلح منه وما لا يصلح وتنظيم القياس الذي جرى عليه الحنفية ووضع قواعد له وتقسيمه أقساماً وتوضيح علله وبيان ما يجوز وما لا يجوز — الخ .

وقد ظهر إلى جانب هذين الإمامين الجليلين أفذاذ من الحجازيين سلكوا ناحية أخرى . فالتاريخ يقول لنا : إن معبد وابن سريج وابن عائشة وغيرهم نبغوا في فن الغناء والتوقيع على الآلات وأن عمر بن أبي ربيعة اشتق لنفسه طريقته المشهورة في الشعر الغزلي والتي لم يسبقه إليها أحد قبله من شعراء العرب وحذا حذوه الحجازيون من أمثاله فتألفت من هذين الفريقين الأغاني العربية الرائعة . وحاز هؤلاء قصب السبق وقد نبغ قبلهم — الحارث بن كلدة — في وضع الآلات الموسيقية

ومعالجة مرضاه بها وازدهرت هذه الصناعة على أيديهم بما كانوا يتعهدونها به من جهود متوالية حتى أصبحت مراسح الأنس ومجالس الطرب في مكة والمدنية تستهوى إليها خلفاء بني أمية ثم العباسيين كما تستهوى مدينة (هوليود) بكواكبها الناس في الشرق والغرب . فكانت النجوم المتألقة في سماء الفن الغنائى تسطع في ربوع الحجاز فتبهر من في الشام ومن بالعراق . وكانت سبباً في نشاط حركة التوسع في هذا الفن في تلك العاصمتين الكبيرتين دمشق ، وبغداد . ونألفت من جراء ذلك كتب الأغاني فالموسيقى فالقنون الجميلة بأنواعها المختلفة . هذه هي العلوم والفنون التي وضع نواتها الحجازيون والتي شاركوا في تنميتها وازدهارها مشاركة عملية كما علمت مما قدمنا كانت — وما تزال أغلب العلوم التي يشتغل بها علماء العالمين العربي والإسلامي حتى بلغت مبلغها من الاتساع والتضخم بما ادخل عليها من التحوير والتحسين والتلقيح والتنميق كما نراها في صورتها الحاضرة في هذا العصر . ومن أدل الأمثلة أيضاً على تفوق الحجازيين وما كان لأقوالهم وأفعالهم من التأثير في مجارى الأمور موقف الشاعر الحجازي العبقري أبي محمد عبد الله بن موسى عند ما نكت نفقور ملك الروم عهده للرشيد العباسي فأنشده قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

نقض الذى أعطيته نفقور وعليه دائرة البوار تلور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أذاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده حذر الصوارم والردى محذور

وهي قصيدة طويلة غير بها مجرى التاريخ واستفز الخليفة إلى أن يقف بالجهة الإسلامية موقف القوة بعد أن كان متردداً فاستخذى نفقور وانكش .

وما كنا لنسرد عليكم — أيها السادة — كل ذلك إلا لتعلموا أن الحجازيين ما زالوا عملاً أيًا كان من الأعمال إلا وكانوا فيه من البارزين . وما ولجوا طريقاً إلا كانت خطاهم فيه مسددة . وما وجهوا همهم لأمر من الأمور إلا كانوا أئمة يقتدى بهم . وما جاءت تلك المؤهلات التي يمتاز بها الحجازيون والتي تدفع بهم لأن يكونوا دائماً في الأمام وعلى المقدمة وفي أول الصف إلا من ذلك الذكاء الفطري الكامن فيهم كمن النار في الحجارة لا تلبث أن تقدح فتورى بقبس مبين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لم خلقنا ؟

كثيراً ما تتساءل بيننا وبين أنفسنا لم خلقنا ؟ والمسلم لا يضرب في بيداء الفلسفة ومتهاات الأفكار ؟ لأنه يجد الجواب على هذا السؤال ماثلاً في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وفد مرت أجيالٌ على المسلمين وهم لا يفهمون من هذه الآية إلا العبادة المحدودة كالصلاة والصيام والحج والزكاة ولا يعرفونها إلا شكلاً حتى أصبحت صلاتنا وزكاتنا لا تؤديان الغرض الذي يريده الله منا . وأصبح صيامنا وحجنا جوعاً وعطشاً وضرباً في الصحراء وتعرضاً لوعناء السفر ومواطن الأخطار ثم لا شيء وراء ذلك ولذلك أصبحنا نرى المسلمين يصومون ويصلون ويحجون ويأتون أنواع العبادات والنوافل ولكنهم في أعمالهم ومعاملاتهم مع بعض لا يلتزمون مع آداب الإسلام وفرائضه . وواجبات المسلم والتزاماته . هذا من جهة ومن جهة أخرى . فإن تحديد العبادة بالصلاة والصوم والحج والزكاة والإكثار من النوافل كالتعبد وصيام أيام من كل شهر وتلاوة القرآن . وقصر العبادة على ما شابه ذلك قصراً شكلياً فهم خاطيء . فكل هذه العبادات لم تكن مقصودة لذاتها وإنما المقصود منها تصفية النفس الإنسانية والسموبها عن مواضع الدناءات . فلا تدع للشهوات والغرائز سلطاناً يهيمن عليها ويصرفها عن العمل لصالح الفرد وصالح المجتمع الذي يعيش فيه وكل عمل يقوم به الإنسان سواء أكان هذا العمل في المسجد ، أو في المصنع ، أو في المتجر ، أو في الوظيفة ، أو في أي مرفق من مرافق الحياة فهو عبادة ما دام يؤديه على الوجه الذي يفيد ويفيد منه المجتمع الإسلامي أو بوجه أعم المجتمع الإنساني . فالذي يقضى ليله سهرًا لحفظ الأمن والذي يقضى يومه نصباً في العدل بين الناس ، والذي يقضى عمره في الثورة على الظلم ، والذي يبذل جهده في استنبات الأرض والذي يبحث في أسرار

الكون ويستجلى غوامضها ويحاوها للناس أفضل بكثير ممن يقضون أعمارهم في الصلاة والصوم والتهجد وقراءة القرآن ثم لا يستفيد منهم المجتمع شيئاً ذلك لأن الأولين يعبدون الله عبادة تنفع الناس أجمعين أما الآخرون فإنهم يعبدون الله وعلى فرض صحة عبادتهم فإنهم لا ينفعون بذلك إلا أنفسهم فقط والفرق بين هؤلاء وأولئك كالفرق بين من يستأثر بالمصلحة لنفسه ولنفسه فقط وبين من يؤثر الناس على نفسه .

إن فريقاً من الناس يصلون كأحسن ما يصلى الناس لربهم ولكنهم يناقون ذوى السلطان ويتملقونهم . ولا ينكرون عليهم ظلمهم إذا ظلموا الناس .

وبعضهم يصلون كأحسن ما تكون الصلاة أناة وصحة ولكنهم لا يجودون بأموالهم حرصاً عليها وشحاً بها وإن كان الجوع والعري والبؤس يفتك بالملايين من حولهم .

وبعضهم يصلون ويصومون ولكنهم لا يعلمون من أمور دينهم غير الصلاة والصيام ويسكتون عن قول الحق خشية أن يلحقهم أذى أو مكروه .

وبعضهم يصلى ويصوم ويذكر ويحج ولكنه يرى بعض العلوم النافعة كفرة وإلحاداً لا يجوز للعلم الاشتغال بها ويستعدون الأحكام عليهم بحجة الحرص على عقيدة الإسلام . وإذا طلبت إليهم المناقشة في ذلك وقرع الحجة بالحجة أبوا واستكبروا وقالوا : ما أنزل الله بهذا من سلطان .

وبعضهم يصلون ويصومون ويحجون ويذكرون أيضاً ولكنهم لا يتورعون عن تناول أى ربح يأتيهم عن أى طريق ماداموا يحققون بذلك ما ينشدون من ثراء . وبعضهم يصومون ويصلون . ولكنهم لا يتخرجون عن الإيقاع بالأبرياء وذلك وسيلتهم الوحيدة إلى لقمة العيش .

وبعضهم يصومون ويصلون بل ويتمسكون بكل مظاهر الحرص على الإسلام . ولكنهم يسكبون ماء وجوههم رخيصة في سبيل منصب من المناصب أو زعامة من الزعامات أو أى غرض من أغراض النفس الأمارة بالسوء .

وبعضهم يصلون ويصومون ويحجون كأحسن ما تكون الصلاة والصيام والحج ولكنهم يستبيحون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم من الناس .
إن كل هؤلاء ومن يشبهونهم أو يتشبهون بهم لا تنفعهم صلاتهم وإن تقومت ظهورهم من السجود والركوع . ولا ينفعهم صيامهم وإن تمرقت أحشاؤهم من الجوع والعطش . ولا ينفعهم حجهم وإن أدمت أجسامهم رمال الصحراء . ولا تنفعهم قراءتهم للقرآن وإن تقطعت حناجرهم من ترتيله وتنغيمه . ولا ينفعهم تهجدهم وإن أدمى أجفانهم طول السهر . ذلك لأنهم لم يحققوا معنى العبادة التي خلقهم الله من أجلها .
ولذلك نجد المسلمين اليوم ينظرون للمسلمين بالأمس — حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بآتون بالمعجزات الخالدات — نظر دهشة واستغراب ويتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم كيف استطاع محمد وأصحابه أن يدفعوا الحياة تلك الدفعة القوية ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ؟ ويملوا على التاريخ فيسجل لهم ما يملون عليه وهو صاغر ؟ إن بُعد المسافة بين المسلمين اليوم والمسلمين بالأمس جعلنا ننظر إليهم كأننا خلقنا من طينة غير طينتهم . إن الطينة التي خلقوا منها هي الطينة التي خلقنا منها غير أنهم فهموا الإسلام روحاً وفهمناه شكلاً . فهموه معنى وفهمناه كلاماً . فهموه تضحية ونضالا وفهمناه تشدقا وإدعاء .

إننا لم نخلق عبثاً ولكن خلقنا لعباد الله — كما قال الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

فلنفهم العبادة فهماً صحيحاً ، ولنبعد عن أذهاننا ذلك الفهم السطحي المحدود الذي قصرته أجيال الظلمة والظلام على الصلاة والصيام والحج وقراءة القرآن ثم لا شيء وراء ذلك إن العبادة التي خلقنا الله من أجلها هي كل شيء فيه صلاح البشرية والسمو بها . وإذا لم نفهم العبادة الفهم الصحيح فإن قوى الشر العارمة النابعة من نفوسنا ستحتاجنا قبل أن تحتاجنا قوى الشر الوافدة علينا من الخارج . فلنحقق إرادة

الله في خلقنا ولنعبده العبادة الصحيحة . فإننا لن نكون أعزاء في الدنيا أقوياء على الأعداء إلا إذا عبدنا الله حق عبادته وفهمنا المقصود من قوله تعالى « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » وهناك . هناك لا يساورنا الشك في حكمة خلقنا . ولا تتساءل فيما بيننا وبين أنفسنا (لم خلقنا ؟) فإنني لا أرى مبعث هذا التساؤل إلا ماران على حياتنا من قلق للمعنى السقيم الذي علق بأفهامنا . وقيام ذوى الأغراض والنزوات بيننا وبين الفهم الصحيح للمعاني السامية الخليقة بأمة قال فيها خالقها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » والعبادة في كلمة صغيرة موجزة هي تحقيق المعاني الإنسانية السامية على وجه الأرض ولذلك خلقنا .

لا تقف على الحافة

نعم لا تقف على الحافة . فإن الواقفين عليها إن لم يسقطوا فلن يرتفعوا . ولست جهاذاً تجيء إلى الدنيا وتخرج منها ، دون أن تشعر بك الحياة . وإذا أحببت لنفسك الخمول والوقوف في مكان واحد فلن يضيرنا ذلك لو أن هذا الوقوف يقتصر عليك . ولكن خمولك يغري الآخرين بعدم الحركة . وبذلك تفقد الحياة عنصرها الأصيل . ولا يكون الفارق بين الوجود والعدم كبيراً أو هاماً .

إن الحياة لا تتمثل في أروع مظاهرها إلا في الإنسان . فلماذا تقضى على روعة الحياة بوجودك ؟ أفلا يكفيك أن تقضى على روعتها حين تموت ؟

لا تقف على الحافة ، وكن موجة من موجات الخضم وحبذا لو كنت موجة من موجاته العاتية .

إن ماء البحر يتجدد بالموج المتلاطم ، وما المجتمع إنه الخضم الكبير ؟ وأنا وأنت وهو أمواجه التي يجب أن تتحرك وإلا تأسنت الحياة . وشاعت رائحة الأسن الكريهة في المجتمع الذي نعيش فيه .

لا تقف على الحافة فإن وقوفك عليها يفقد الخضم موجة من أمواجه ، وإذا فقد البحر موجة من أمواجه لا يلبث أن يفقد الكثير بعد ذلك ، وبذلك لا يكون للبحر رهبة ، ولا لأمواجه روعة ، ولا لحياته معنى . .

لا تقف على الحافة ، فأنت واهم إذا كنت تظن الوقوف على الحافة يهبك السعادة ، إن السعادة لا تحسها إلا إذا اندمجت في اللجة ، وزدت في عنفوانها بحركتك فيها .

نعم إنك قطرة ، وأنا أيضاً قطرة ، وهو كذلك قطرة . والمحيطات الكبيرة

لم تتألف إلا من هذه القطرات مجتمعة ، لو أن كل قطرة انفصلت عن البحر ووقفت على الحافة لجف البحر ، ولتبخرت القطرات .

لا تقف على الحافة فإنك إن مكثت عليها قليلا ، ستتبخر في الهواء كما تتبخر كل قطرة تنفرد بنفسها .

لا تقف على الحافة وادفعني معك لأدفع غيرى ونزل جميعاً إلى اللجة لنمنح حياتنا حركة ، ووجداننا سعادة ، ولنترك بوجودنا أثراً في أعماق الحياة .

ألوان التعبير

ليس التعبير وفقاً على الكلام نظماً أو نثراً . بل يتعداه إلى أشياء كثيرة ، منها التصوير ، والرسم ، والنحت ، والرقص ، والتمثيل ، والموسيقى ، والغناء . وقد أوتي الإنسان ملكة وقدرة على التعبير بكل أولئك . بل ربما كان التعبير في الإنسان الأول يقتصر على الإشارة والإيماء والصوت . قبل أن يخترع الإنسان اللغات التي يتكلم بها .

والأمة التي تعبر بكل ألوان التعبير أرقى بكثير من الأمة التي يقتصر تعبيرها على لون أو لونين من ألوان التعبير .

والذين يتنكرون لألوان التعبير المختلفة فيما عدا التعبير بالكلام فإنما هم يتنكرون للمواهب والملكات الإنسانية التي أودعها الله في خلقه ، ويحجبون عن أنفسهم بذلك كثيراً من الأسرار والمعاني والمباهج التي تزخر بها أنفسهم ، والكائنات التي تحيط بهم . ويعيشون ويموتون وهم في ظلمة داجية من الكثافة في الحس والجود في المشاعر والتبليد في الطبع والقصور المرزى في الوعي والإدراك .

إن من بعض المعاني الإنسانية ما يعجز الكلام عن الإفصاح عنها بينما الإيماء من الممثل تؤديها أداءً بليغاً . ولن تستطيع أن تنتقل إلى عصر من العصور وتعيش مع أهل ذلك العصر إلا في المسرح . فإن المسرح هو القادر الوحيد الذي ينقلك إلى العصر الذي تريد أن تحيا فيه وتعيش مع أهله وترى أسلافك رأى العين . ذلك لأن المسرح أعد لهذه النقلة كل شيء لتكون نقلة حقيقية ، تعيش فيها بروحك وعقلك بل وبجسمك ساعة من الزمان .

وإن بعض الخلجات الوجدانية الغامضة التي تحوِّك في أنفسنا لا يوضحها لك وضوحاً مريحاً مثل الموسيقى .

وإن من الأمراض النفسية ما لا علاج له إلا بالموسيقى . وقد يما عرف ذلك عبقرى الطب فى الحجاز الحارث بن كلدة الملقب بطبيب العرب ، فقد عالج بعض مرضاه بالموسيقى . وقد أيد العلم — حديثاً — معالجة بعض الأمراض النفسية بالموسيقى وإن بعض الارتسامات التى ترسم على الوجه من أثر الفرح أو من أثر الخوف أو من أثر الغضب أو من أثر الزمان لا يخلده إلا نحات فى تمثال أو مصور فى صورة . كل أولئك ألوان من التعبير التى لا يستغنى عنها الإنسان ولا يهملها إلا كل من لا يحب لنفسه إلا أن تكون سجيئة فى أسار الجمود .

لقد علق بذهنى — وأنا ناشئ — من أوهام الخرفين ما يعلق بذهن الناشئين فى بيئة جامدة . فكنت لا أرى فى التصوير والرسم والنحت والتمثيل والرقص والموسيقى إلا عملاً من أعمال الشيطان التى يجب أن ابتعد عنها وحكمت على نفسى بأن تظل سجيئة ما علق بها من خرافات وأوهام . باسم الإسلام . لأن ما علق بذهنى من خرافات لم يتسلل إلىّ إلا من رجال يزعمون بأنهم علماء الإسلام وقهاؤه ومن انكبا بى على قراءة تلك الكتب الصفراء . التى قذفتنا بها عصور الظلمة والجمود الفكرى الذى كان طابع المسلمين فى حقبة كبيرة من حياتهم تلك الكتب التى أفسدت عقولنا ولوت طرائق التفكير فىنا . وجعلتنا تقليديين عمياناً لا نبيح لأنفسنا أن ننفس إلا فى أجواء مظلمة موبوءة . فوجدت فى نفسى ضيقاً وصرت أتساءل هل الإسلام حقاً يحرم علينا ما تميل إليه نفوسنا ؟ وينكر عواطفنا ووجداننا ويصرع ملكة التفكير فىنا ؟ وإذا كان هذا حقاً من الإسلام فكيف يكون الإسلام دين الفطرة ؟ وأين الفطرة من هذه القيود وهذه الأغلال التى تثقلنا ؟ فلما تفتحت نفسى للحياة أخذت فى تنمية ملكة التمييز الفكرى حتى استطعت أن أستبين الزائف والصحيح من الحقائق . فصحبت بعض العلماء المتحررين من الجمود وعكفت على قراءة ما أشاروا به على من الكتب . فإذا أنا أجد الإسلام دين الفطرة حقاً . لقد وجدته

يفيض سماحة وكرماً وعدلاً ورحمة . يكرم الإنسان ولا يتنكر لعواطفه ولا يحرم ما تميل إليه الأنفس ويعترف بالشهوات . وإنما هو ينظمها تنظيماً دقيقاً لمصلحة الإنسان . لئلا تشيع الفوضى في المجتمع الإنساني ولئلا تعلق الخرافات والأوهام بذهن الإنسان . ولئلا يتحلل الإنسان الذي هو أكرم المخلوقات وأرقاها فينسى أنه مخلوق كريم .

فإذا نظم الإنسان بتعاليم الإسلام عواطفه وشهواته وما تميل إليه نفسه ولم يتعد الحدود التي رسمها له الإسلام وحرر نفسه من الأوهام وعقله من الخرافات . وأصبح مؤمناً بقوة واحدة تهيم على الكون . وأن ما عداها من القوى البشرية والقوى الكونية إنما هو خاضع للناموس الإلهي المهيمن على هذه الأشياء . وإن العقل في الإنسان هو أعظم قوة وهبت له ليهيمن على ما حوله . ولا يتمكن من هذه الهيمنة إلا بتنمية ما فيه وما تنطوي عليه نفسه من أسرار وذخائر واستجلائها استجلاء واضحاً لا غموض ولا إبهام فيهما . وبذلك يستطيع أن يستولى على الأرض والسماء وما بينهما ويستفيد من عناصر القوة ويدرك عن نفسه الأضرار التي تنشأ من العناصر المضادة المؤذية الهائطة بالحياة . ووجدت أن الإسلام لا يقف حجر عثرة في سبيل كل أولئك ولا يحرم إلا كل ما يؤدي إلى ضعف الإنسان وجحوده وتحجره وانحلاله . ووجدت نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لم يحرم ما حرمة علينا المنتطعون في الدين باسم الإسلام . لقد كانوا وما زالت بقية منهم يحرمون على المسلمين كثيراً من العلوم والفنون . أما الرسول فقد مر على الأنصار وهم يوبرون النخل فلما سألهم عن ذلك قالوا : ليثمر النخل فمنعهم فلما لم يثمر النخل قال عليه الصلاة والسلام : «أتم أعلم بأمور دنياكم» ولم يمنعهم من توير النخل مرة أخرى . وكانت في بيته الطاهر الشريف ستارة منقوش عليها صورة حيوان . فلم يمزق الستارة — كما يفعل المنتطعون في الدين اليوم — وجاء أحباش إلى المدينة يرقصون ويلعبون بعض الألعاب التمثيلية والبهلوانية فكان عليه الصلاة والسلام يسند أم المؤمنين السيدة عائشة لترى . وهو يرى معها . وقال مرة

للسيدة عائشة : هل زفقت الفتاة إلى بيت زوجها ؟ فقالت : نعم . قال : أبعثتم معها من بغني ؟ قالت : لا . قال : ألم تعلمي أن الأنصار يعجبهم الغزل ؟ هلا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فخيونا نحييكم
ولولا الحبة السمر ، ما جئنا بواديكم

وسمع مرة جارية تغني بهذا البيت :

هل على ويحكموا إذا أحببت من حرج

فقال عليه الصلاة والسلام لا حرج لإنشاء الله .

وكان يأمر صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة وغيره من الصحابة أن يحدوا وهو في السفر . وكان للسيدة عائشة دمي تلعب بها فلم ينكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الدمي ؟ أليست تماثيل ؟ .

وكان يسمع الشعر في مسجده ويحيز عليه . واستعان عليه الصلاة والسلام بالشعر في النضال عن الإسلام والدعوة إليه فكان الشعر من الأسلحة القوية التي حاربت الوثنية ، ذلك هو الإسلام لا تجد فيه إلا السباحة والحرية والانطلاق . وذلك نبي الإسلام سمحاً كريماً رحماً رؤوفاً بالمؤمنين .

نعم . إن كل شيء له حد ، فكما أن كل الطعام حلال لنا إلا الميتة والدم ولحم الخنزير ، وكل الشراب حل لنا إلا الخمر ، وكل الربح حلال لنا إلا ما كان سرقة أو رشوة أو ربي أو ميسر أو كسب غير مشروع .

وكل اللباس حلال للرجال إلا الحرير وقد يحل للضرورة ، وكذلك كل الغناء حلال وكل الموسيقى حلال وكل الرقص حلال وكل التصوير حلال وكل الرسم حلال ، إلا ما كان خليعاً مجافياً للذوق متعدياً للحدود ، والحكمة في التحليل والتحريم واضحة .

إن من يمنع الناس من حقوقها ويدع الشعب يكابد الجوع والحرمان ثم يقيم

تمثالا ينفق عليه من قوت الشعب يرتكب حراماً ، ومثله في الحزمة من يبنى قصورا شاهقة تصرف عليها الملايين من أموال الشعب فهذا مثل ذاك ، أما أن نحأتاً أو رساماً يصنع شيئاً من ذلك ويبيعه ليقنات هو وعياله من ثمنه ، فأى حرمة في ذلك ؟ وعلى فرض أن التماثيل كانت محرمة فقد انتفت العلة التي حرمت من أجلها الآن لأنها كانت تعيد وتتخذ آلهة من دون الله إتنا في عصر وضع الأصنام تحت أقدامه من أى نوع . ومن المستحيل أن ترتفع الأصنام إلى مقام الألوهية بعد الآن .

لقد فهمت الإسلام على حقيقته . واستطعت أن أميز بين الصحة والزيغ . وعرفت حقيقة كانت مجهولة في نفسى تلك الحقيقة هي علة هذا التأخر وهذا الضعف اللذين منيت به البلاد الإسلامية عامة وعرفت أن الاستعمار الأوربي لما كان لينقض على البلاد الإسلامية ، لولا أننا كنا نفهم أو كانت المجتمعات الإسلامية تفهم أن الإسلام هو هذه المفهومات الخاطئة التي تلقنها من أدعياء العلم بالإسلام .

ولو أن المجتمعات الإسلامية سلمت من الذين يفرضون آراءهم ومفهوماتهم عليها باسم الدين . وترك السبيل مفتوحاً بينها وبين العلماء الذين اضطهدوا وافترى عليهم بأنهم زائغون مارقون عن الدين . لما وصلنا إلى ماوصلنا إليه من هذا الضعف وهذا التأخر الذي تتجرع مراراته وندفع ضريبته للاستعمار والبغى والطغيان .

إن المسلمين سبقوا أوروبا في مزاولة العلوم الفلسفية والرياضية والطبية والفلكية ولنشاطهم فيها آثار خالدة ومنها ما كان المفتاح الذي فتح لأوروبا وعلمائها مغاليق الطبيعة . حتى أصبحوا على ما هم عليه الآن . ولو استمر نشاط المسلمين في مزاولة العلوم والفنون النافعة لا كتشفنا كثيراً من القوى التي اكتشفها أوروبا اليوم وظهرت علينا بها . ولكن مع الأسف الممض منيت بلادنا ومجتمعاتنا بمحاربة النابغين والعباقرة من علمائنا وأفذاذنا فكانت النتيجة أن صرنا عالة على غيرنا في كل شيء .

واتهم الإسلام بتهمة الجمود والتعصب والرجعية . وظنت به الظنون، ووقعت بلادنا

في أسر لا يخلصها منه إلا أن تنفض عن عقولنا وأفكارنا ومفاهيمنا كل ما علق بها من أوساخ الماضي وأقذاره ، ونسير في إقدام وشجاعة ، ومضاء إلى السمو والتحليق .

وليس في التعبير بكل ألوان التعبير عن أنفسنا وأفكارنا ووجداننا ضير علينا . فمن أعجزه التعبير بالكلام شعراً ونثراً ويحسن التعبير بالموسيقى أو بالرسم أو بالنحت أو بالتصوير أو بالتمثيل أو بالرقص ، فليعبر به وهو مطمئن إلى أنه لم يأت عملاً يخالف الدين وإنما هو يبين عن ملكة أو موهبة أو دعما الله فيه فلا يعطل تلك الملكة فإن تعطيلها تعطيل لخلق الله . والله يقول في كتابه الكريم « والله خلقكم وما تعملون » .

إن على الراشدين منا أن بنموا غريزة التعبير بألوانه المتعددة في النفوس . فنحن في حاجة إلى معهد للتمثيل . وفي حاجة إلى معهد للرسم . وفي حاجة إلى معهد للموسيقى ونحن في حاجة إلى المسرح لأن المسرح في عصرنا مدرسة للجمهور يفتح وعيه ويهذب طبعه . ويسمو بذوقه ويبصره بعيوبه ويضع يده على مآسيه وجراحاته .

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن هذه الأشياء كاليات ونحن لم نستكمل ضرورات الحياة . أو أن هذا ترف في التفكير .

ولكن لو فكرنا قليلاً تفكيراً غير مثقل بما علق في أذهاننا من مفهومات تقليدية مكبلة بقيود الجهل والجمود . لو جدنا أننا لا نستغنى عن تلك المعاهد لتنمية ملكات التعبير المختلفة في أنفسنا لنستطيع التعبير بكل لون من ألوانه عن رغباتنا وإذا تضافرت ألوان التعبير فسنصل سريعاً إلى المستوى الذي نريده أما بقاؤنا على قصر التعبير بالكلام فقط فإننا نكون كالنجار أو الحداد أو أي صانع لم يستكمل أدوات صناعته . ومن لم يستكمل أدوات صناعته لا يبلغ من غايته ما يبلغه صاحب الأدوات الكاملة .

إن شارلى شبلن الممثل الكوميدي المشهور . لا تقل مكاتنه عن مكانة أى
مصلح اجتماعى كبير خدم الإنسانية بقوة أدائه . وأسر تعبيره . ولم يكن شارلى شبلن
يعتمد على الكلام فى خدماته الإنسانية . وإنما كان يعتمد فى قوة تمثيلة واندماجه
فى الدور الذى يريد إبرازه .

لقد اصطحبني أحد الأصدقاء الأعزاء إلى دار من دور «السينما» وكان هذا الصديق
يعرف عزوفى عنها . ولكنه ألح على فى أن أصحبه لأشهد شارلى شبلن فى فلم صامت .
قللت له : إن الأفلام الناطقة لا تثير فى الاهتمام بالسينما فكيف تريد إغرائى
بالذهاب معك إلى فلم صامت ؟ فقال : إنتى لم أحرص على أن تصحبني إلا لأن القلم
صامت لعلك ترى ما يبلغه الصمت من النفوس ، ولتعلم أن الإنسان يستطيع التعبير
عن أدق خواج النفس الإنسانية ، ويثير شتى الانفعالات فى غيره دون أن ينطق بكلمة
واحدة . وإن تعبير هذا الصديق الكريم بهذه اللهجة أغرائى على الذهاب معه .
وشهدت الفيلم . وخرجت وأنا مؤمن بأن الله وهب الإنسان من المواهب والملكات
التعبيرية الشئ الكثير وأن الذين وقفوا التعبير بالكلام فقط ولم يستعملوا ما عداه
محرمون من أدوات قوية لو استعملوها لزادتهم قوة فى الحياة . وسموا فى التفكير وعراقة
فى الإنسانية الذكية النابهة .

ودخلت معرضاً لرسم اللوحات . فخرجت وأنا أحس بأنه قد تفتحت فى ذهنى
آفاق جديدة ما كانت لتفتح لولا زيارتى للمعرض . لقد رأيت فى تلك الرسوم من
المباهج المرتسمة على بعض الوجوه . ما لم أكن ألحظه على وجوه الأحياء . إلا قليلا
لأن الحى فى تغير مستمر . فإشراق معنى البهجة فى وجه إنسان لا يلبث إلا لحظة
خاطفة ، هذه اللحظة الخاطفة لا يصورها إلا فنان . وكذلك كل المعانى من مباهج
أو مآسى من ألم أو ارتياح تجدها بارزة بروزاً بيناً فيما يقدمه لك الفنانون فى آثارهم .
وفى ليلة كنت أشعر بأحاسيس غامضة . لا أعرف كنهها . ولا أستطيع التعبير
عنها ، وكان بجوارنا معهد التمثيل العالى . وكان الجوسا كنفاً . فتسللت إلى نغمت

الممثلين في ترتيل بعض الأناشيد بصحبة صوت آلة موسيقية . وكنت مستلقياً في منزلي . فوجدت نفسي تدفعني دفعاً لمتابعة تلك الأنعام . وباتتها انتهى ما كنت أشعر به من تلك الأحاسيس الغامضة التي كانت تكريني .

أفترى أن الإنسان أوتي كل تلك الأشواق وكل تلك الأحاسيس . وزود بالملكات التعبيرية المختلفة عبثاً ؟ أوتراها خلقت لتوأم ؟ كلا إن الله خلقنا وخلق فينا المواهب والملكات لتستجلي من كل أولئك أسرار صنيعته وبدائع حكمته ويزداد به إيماناً . ونستمد من كل ذلك قوة نقابل بها الحياة ما دمنا أحياء . ولنهتف من الأعماق (سبحانك ما خلقت هذا باطلا) .

كيف نحفظ بعروبتنا

ألقيت بقاعة المحاضرات بدار الإسعاف الحرى
بمكة سنة ١٣٥٩ هـ

أيها السادة :

لقد احتلت جمعية الإسعاف من قلوب المواطنين مكانة عالية فإنها الجمعية الإنسانية التى تعمل للخير ولا شىء غير الخير .

ومما امتازت به أن جعلت فى دارها قاعة للمحاضرات ليساهم الأدباء والعلماء بنتاجهم الأدبى فى تغذية الأذهان والأرواح .

فشكراً لرئيسها الشيخ محمد سرور الصبان على شعوره الطيب الذى يدفعه لأن يبتكر من الأعمال كل ما هو جليل ونافع ، ويمد به أمتة فى هدوء وتواضع ، حتى أصبح هذا الرجل فى مقدمة رجالاتنا الذين لا يحبون لأنفسهم فحسب ، ولكنهم يحبون ليحيا معهم الناس . فإذا ما رأينا القلوب مليئة بحبه والألسنة لاهجة بشكره فما ذلك إلا لما امتاز به من أياد بيض تجعله جديراً بالحب حفيهاً بالثناء وما التوفيق الذى بلازمه فى أعماله إلا آية إخلاصه أدام الله له التوفيق .

. سادتى :

أريد الليلة أن أحادثكم فى شأن ما يجب علينا لهذا الوطن البار بنا ، وأن ما أريد أن أحادثكم به هو أقل ما يجب لوطننا علينا ونحن إذا قصرنا فى أداء هذا الواجب يعد قصورنا عقوقاً منا فى جانبه ، وإلى متى يبنى هذا الوطن بالعقوق ؟

فلقد مرت عليه سنون وتعاقبت عليه أجيال وهو لم يجد من أبنائه غير نكرانهم لجميله وتجاهلهم لحقوقه وجحودهم لفضله . وما وجد من مستوطنيه وسكانه من حنى عليه أو اهتم بشأنه أو استمع إلى شكواه وهو فى كل ذلك صابر محتسب لا يتألم ولا يتملل

ولا يسخط ولا يتذمر، حتى خيل إلى رائيهِ أنه فاقد الشعور مسلوب الإحساس . وحتى ظنه الكثيرون أنه في عداد الموتى فهم إذ يذكرونه لا يذكرونه بغير الرثاء ، وإذ يدعون له لا يدعون له بغير الرحمة والغفران . وهل يذكرون الأموات أو يدعى لهم بغير هذا ؟

وما أدى بالناس لأن يظنوا به الظنون لولا ما أصيب به من عقوق أبنائه وما منى به من جحودهم لفضله ، ونكرانهم لحقوقه ، وقد آن الأوان لأن تغسل عنا عار العقوق الذى لحقنا فلقد قىض الله لنا فرصة نبذل فيها الجهود ونقف همنا ونصرف عنايتنا لما يعلى شأن هذا الوطن وقيمه من كبوته . وإذا لم يكن فى مقدورنا القيام بالأعمال المنتجة فلا أقل . من أن نبذل شيئاً من الجهد ولو بالكلام ، وهل أقل من الكلام ؟

صحيح أن الأقوال إذا لم تسندھا الأعمال كانت ضرباً من ضروب العبث الذى لا فائدة منه ولا ثمرة فيه ، ولكن الأقوال إذا كانت صادرة عن إيمان وعقيدة وإخلاص لا يقصد بها إلى غرض من الأغراض الشخصية الخاصة يكون لها من الأثر فى القلوب ما يضمن لها التحقيق بالأفعال .

وكلنا يستطيع أن يقول . ولكن ليس كلنا يقول ويعتقد ما يقول ، أو على الأقل يحمل نفسه على العمل ولو ببعض ما يقول ، لذلك كانت أغلب الأقوال لدينا إن أثارَت الإعجاب فى النفوس ، فهي بعيدة عن أن تتأثر بها النفوس . والإعجاب شئ والتأثر شئ آخر .

أما من يملك ناصية الكلام — عن عقيدته — ويسخره لخدمة وطنه وأمتِه لا يبتغى بذلك غير المصلحة العامة سيجد — إن عاجلاً أو آجلاً — آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، ورؤوساً مفكرة ، يعنىها من أمر الوطن ما يعنى به المتكلم . فتستخلص من كلامه ما يروقها ، مما عساه أن يكون فى مقدورها تحقيقه ، وربما تعهده المهم العالية ، والأيدى العاملة ، والإدارة الرشيدة بعنايتها ، وأبرزت لنا فى عالم الحقيقة

ما نراه اليوم بعيد المنال ، أستغفر الله ليس في الوجود شيء بعيد المنال إذا تضافرت عليه الجهود واتجهت له العزائم وتعهده له لهم .

إن نابليون البطل الإفرنسي المشهور لم يبالغ كثيراً حينما قال : « لا مستحيل في الحياة » لأنه بعرف ما للهيم العالية من معجزات ، لا بكاد يؤمن بها ضعاف العزائم . إن كل الأمور المشاهدة في عالم الوجود وكل ما حدث في الحياة من غير وعبر وكل ما نراه من غرائب وعجائب ، وكل ما استجد على وجه الأرض من مستحدثات ومخترعات لم تكن في مبدأ أمرها إلا أخيلة تداعب الفكر ، ثم استحالت إلى هواجس ونوازع يعتلج بها الصدر ، فلما أراد الله تحقيقها سخر لها البيان ، فأضفى عليها من أساليبه ما جعل العقول تنصرف إلى التفكير فيها ، والجهود تتكاتف على إبرازها ، وما لبثت بعد أن اعتورتها الهمم ، واكتنفتها العزائم ، أن رؤيت كائنات حية يلمسها الحس وتمتليء بمرآها النفوس والأبصار .

بعد هذا أرجو أن لا يحمل ما سأحدث به على أني أريد بذلك استثارة العصبية الجنسية والإقليمية في النفوس ، فإن ذلك ما لا يستسيغه الفكر العربي الناضج ، ولا يطمأن إليه العقل الإسلامي السليم ، ولا يخطر على النفس الحجازية المشهورة بدعتها وسماحتها . وإني أربأ بالسامعين لحديثي — الآن — والقارئ له — فيما بعد — أن يصرفوا كلامي إلى غير الوجهة التي إليها أقصد ، والغرض الذي إليه أرمي ، وأن لا يحملوا كلماتي من المعاني ما لا تحتمله . وإن لي من نبل الناية وحسن القصد خير شفيع فيما عسى أن يكون لكلامي من الوقع السيء في النفوس — ولعلني أكون واهماً في هذا الذي قدرت — وعلى كل هذه كلمة — وإن طالت — لا بد منها لما سيجره الحديث من شؤون وشجون لأكون قد أديت — سلفاً — بعض ما تقتضيه اللياقة . وإني جد حريص — كما علم الله ذلك مني — على عدم التعرض لجرح الإحساسات خصوصاً إحساسات إخواننا الذين تشرفوا بالهجرة إلى هذا البلد الأمين واتخذوه موطناً لهم .

سادتى :

إنه — وأيم الحق — ليروع المخلصين من أبناء هذه البلاد المقدسة التى هى مهد العروبة أن يروا طابع العروبة فيها آخذاً فى التقلص والانزواء ليحل محله التذبذب والتبليل فى جميع الأشياء . وما كان ذلك ليكون لولا إهمالنا أمر المهاجرين . فإن المهاجر يأتى من بلاده مزعماً الإقامة فى حرم الله ورسوله ، وقيم السنين العديدة دون أن يفكر فى أن يصطبغ بصبغة البلاد التى آوته وحثت عليه ، واتسعت له ولعياله ، ويظل محتفظاً بشكله وزيه ولغته ، حتى أصبحت بلادنا — كما هو المشاهد — أشبه ما تكون ببرج بابل . ألوان متعددة ، وهياآت متنوعة ، وسحنات متباينة ، ولهجات متضاربة ، وعادات متفاونة ، وأذواق متنافرة ، وطغيان كل ما هو دخيل عليها ، على كل ما هو أصيل فيها ، وبذلك صرنا لا نعرف بين الناس إلا أننا خليط من الأمم ، ومزيج من المخلوقات ليس لنا كيان وليس لنا مقومات ، والحقيقة إننا افتقدنا مميزاتنا ، ولم يعد لنا سمت خاص نعرف به كما تعرف الأمم والشعوب بسماتها وذلك ما حمل البتنونى على أن يقول عنا « إن أهل مكة خليط فى خلقهم وخلقهم فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولى وبسطة الهندى ، ومكر اليمنى ، وحركة السورى ، وكسل الزنجى ، ولون الحبشى » .

أنظروا أيها السادة إلى هذا الوصف المزرى الذى يتحدث بما وصلت إليه حالتنا وقدرنا ما لهذا الوصف من وقع سيء تصطدم به إحساساتنا . ومن منا يحب لأمته أن تكون كذلك ؟ . والبتنوني رحمه الله لم يقتصر على هذا بل أردفه بقوله : — متحدثاً عما رأى وشاهد — « وقد وصل هذا الخلط إلى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلفة من أزياء البلاد الإسلامية . عمامة هندية ، وقفطان مصرى ، وجبة شامية ومنطقة تركية (وأظنه لم ير القوطة الجاوية) ولا (السلطة) البخارية فلم يذكرها وترى الصانع الفقير يلبس القميص وعلى طوقه الوشى المشغول بالحرير وعلى رجله شئ يشبه الوشى وهو حافى القدم » ثم يقول : « والذى يؤسف له أن هذا الخلط

وصل إلى لغتهم فتراهم يتكلمون بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة أوفارسية أو تركية » وعد بعض ألقاظ ما نزال نستعملها إلى اليوم يضيق المقام لذكرها من أمثال « زهم » و « ندر » وغير ذلك .

وقد وصف تبلبلنا هذا كثير من المؤلفين ممن زاروا هذا البلد وأقربهم الدكتور حسين^١ هيكمل فلقد نوه عن تذبذبنا في أكثر من موضع واحد في كتابه « في منزل الوحي » ومما نوه به تذبذبنا في بناية بيوتنا وما عرف سعادته على أى نسق نعتمد في هندستها . والحقيقة أننا لا نعرف معه على أى نسق اعتمدت في هذه البنايات التى تسكنها وإن كان لها نسق تنسب إليه فما هو إلا نسق التبلبل والتشويش والاضطراب . ومن أدق ملاحظات الدكتور ملاحظة فقدان الانسجام بيننا وبين موائدنا التى تتناول عليها الطعام وهو ينوه عن تبلبلنا فى كل شىء حتى فى نفس أطعمتنا ونظام موائدنا وأثاث بيوتنا وكل شىء يصدر عنا ويحيط بنا ، ولم يخف عليه تبلبلنا حتى فى مشاعرنا وإحساساتنا ومجال التفكير لدينا لكنه وهو السياسى المحنك كان لبقاً فى تعبيره وهذا منتهى ما يصل إليه التبلبل والاضطراب وفقدان الانسجام فى أمة من الأمم . ولا أظن أمة فى الأرض وصل بها التبلبل والاضطراب بمثل ما وصلت إليه حالتنا وما أرى الحالة إلا آخذة فى الازدياد والاستفحال وذلك بطبيعة الحال إذ لا يحلو لكل من يضيق بهم ملك الله الفسيح إلا اللجوء إلى الحرمين الشريفين وتلك حال استمر عليها المسلمون واعتادت بها هذه البلاد المقدسة منذ ما افتقدت ذلك الرجل الحكيم الذى كان ينادى فى الحجاج منصرفهم من الحج « يا أهل مصر مصركم ويا أهل الشام شامكم » وزادت الهجرة إلى هذه البلاد فى الآونة الأخيرة بعد أن دهم الاستعمار الأوربى المسلمين بفجائعه وحلت ببلاد الإسلام الوادعة المستكينة النكبات والكوارث .

ولما كنا لا نغير مسألة المهاجرين إلينا التفاتاً - كما يقضيه الواجب - طغت على البلاد وأهلها عادات وتقاليد مختلفة أدت إلى الزرابة بنا إذ نرى كل فريق

يحتفظ - حال استبطانه البلاد - بما ينقله من عادات بلاده وتقاليده قومه حتى كاد أن يمحي طابع العروبة في بلاد العروبة . ونعوذ بالله أن يستحوذ التذبذب على بلد الله الأمين ، ويصير التبليل شعاراً لهذا الوطن المقدس .

لقد بلغ عدد المهاجرين إلينا من الأقطار الإسلامية في الأعوام الأخيرة ما يربو على مائة ألف أو يزيدون من الذين أزمعوا عدم العودة إلى بلادهم وهذا عدد ضخم وإذا استمر سيل الهجرة على هذا المنوال فسيبيدنا كما أباد سيل العرم مملكة سبأ في غابر الأيام . وسوف يندرس ما ورثته البلاد من مميزات سكانها الأصليين ويفنى فيها العنصر العربي ويحل محله خليط من العناصر المتباينة وتفقد البلاد عروبتها وهذا ما لا نرصاه لأرض الحرم وبلاد معد وعدنان .

لا بتوهم أحد منكم أني أحبذ منع الهجرة إليها أو إجلاء المهاجرين عنها . فإن بلادنا وبخاصة مكة هي مباءة المسلمين وبلد الله الأمين مكن لعباده فيها حرماً آمناً وقال لنا في حقه (سواء العاكف فيه والباد) ومكة والمدينة لا يضيقان ذرعاً بمن يأمنهما من المسلمين إنما الذي يخيفنا من هذه الكثرة الساحقة والموجات الجارفة من المهاجرين الذين يتوالون على هذه البلاد الصغيرة في مساحتها القليلة في سكانها الفقيرة في مواردها أن تفقدنا ميزتنا وتطغى على طابعنا وفي النهاية تفقدنا أعز ما نحتفظ به وأكرم ما ندخره لأبنائنا وأخلافنا من بعدنا تلك هي قوميتنا العربية التي هي قوام هذا القطر في حياته الأدبية والمادية وأنه وأيم الحق ليعز علينا أن لا نفكر في أمرنا وندع الدخيل يهيمن على بلادنا ويسيطر بعاداته وتقاليده على عادات العرب وتقاليدهم في عقر دارهم ومحل عزهم . وأن الواجب ليهيب بنا أن نعمل بجهد مكافئ كل ما يفسد على البلاد عروبتها وتتعجل في ذلك قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء فإن العصر الذي نحيا فيه يجب السرعة ويمقت الأناة في مثل هذه الأشياء . وحالة بلادنا تقضى علينا بذلك . ووضعيتها تحتم علينا أن نتشبث بعروبتها تشبثاً لا هوادة فيه ولا تهاون كما تقضى بمحاربة كل

ما يصبغها بصبغة تضعف من معنويتها وتقلل من حرمتها لأن حياتها متوقفة على عروبتها كما هي متوقفة على إسلاميتها . فكما أنها مهبط الوحي ومصدر الرسالة ومازر الإسلام كذلك هي مهد العروبة وقبلة العرب ووكرم الذي يستمدون منه الدفء والقوة . والإسلام والعروبة توأمان لا يفترقان ، وصنوان لا يختلفان . فبالإسلام ساد العرب ، وبالعرب عز الإسلام فهم دعائه وحماته وأنصاره ورعاه . وكما أننا لا نتردد في بذل المهج والأرواح دفاعاً عن ديننا كذلك يجب أن ندود عن العروبة بكل مرتخص وغال . ومن أحق بالعروبة من هذه البلاد ؟

أليست هي التي كانت قبلة العرب منذ جاهليتهم إليها يلجأون وعندها يحتكمون وهي التي كانت تفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ؟

أليست هي التي حملت لواء التوحيد ، وجمعت تحته أشتات العرب وأتقذتهم من ضلالتهم ووجهتهم إلى طريق واحد هو طريق الحق والقوة والخير والجمال بعد أن كانوا طرائق قديداً وأحزاباً وشيعاً يتناحرون على القطرة ويختصمون على التمرة ويحتربون على المرعى ؟

أليست هي التي بزت من حولها بفصاحة أبنائها ورجاحة عقولهم ورحابة صدورهم وسعة مداركهم فاختر الله نبيه منها وأنزل كتابه بلغة أهلها ؟

أليست هي التي حملت مشعل الهداية ورمت بأفلاذ أكبادها بين برائن القوى الغاشمة لهداية الناس أجمع فاقترح أبنائها السدود وتخطوا الحواجز وخاضوا المعارك حتى أناروا الأرض ورفعوا منار الحق وانتشلوا العالم من غوايته وعمابته ووضعوا نير الطواغيت عن كواهل أمم وشعوب أرهقها الظلم وكاد يفنيها الغشم ويودي بحياتها التعسف والاستبداد ؟

أليس أبنائها هم الذين أباحوا مناهل العلم لكل الواردين بعد أن كانت محظورة إلا على فئات مخصوصة من الناس . وهم الذين جعلوا الناس سواسية في الأحكام وأنسموهم نسيم الحرية فاستضاءت بهم الأرض وازدهرت بهم الحياة ؟

أليست هي التي دعت إلى الديمقراطية الحقبة وطبقت مبادئها على أبنائها قبل أن تطبقها على الغير فضربت بذلك أحسن الأمثال للناس ؟

يقول الأستاذ الزيات (صاحب مجلة الرسالة) في إحدى محاضراته التي ألقاها في بغداد ما معناه « إن كان بدو الجزيرة هم الذين حملوا السلاح وفتحوا الفتوح فإن حضر الحجاز هم الذين حكموا الناس وأقاموا الحضارة ونشروا العلم » .

ومن هم — يا سادتي — حضر الحجاز غير أهل مكة والمدينة يوم كانوا عرباً خالصاً . فأين صفات أهل مكة والمدينة اليوم من تلك الصفات التي كان يمتاز بها سكان هاتين الحاضرتين يوم كان يعمرها بطون قريش وبطون الأوس والخزرج ؟ أين ذلك الصيت البعيد الذي كان لهاتين الحاضرتين والذي كانت تتجاوب أصداؤه في أنحاء المعمورة في زمن محمد والراشدين من بعده ؟ من هذا الصوت الخافت الذي لا يتعدى جنباتها ولا يتجاوز رؤوس جبالها ؟ أين تلك الروح القوية التي كانت ترفرف عليهما في زمن خالد بن الوليد وحمزة بن عبد المطلب وسعد ابن معاذ وسعد بن عباد وغيرهم من أشباههم من هذه الروح التي تتمثل فيها رقصة الموت ؟

لا جرم إن بلادنا افتقدت كل ذلك مما جره عليها الدخيل الذي ما دفعه إلى الاستيطان بها غير طلب الدعة والعافية أو الغنى واليسار ولم يبق لنا من كل ذلك إلا صباغة من الذكري تتعلل بها وبقية من أثر العروبة ستفنى وتضمحل إن لم نعمل على تقويتها وننميتها في هذه البلاد المقدسة ذات الماضي المجيد والتاريخ الرائع .

إننا إذا أردنا أن نبقى أمة لها من تاريخها ما يجعلها تتشبث بالبقاء وتنازع الأحياء الوجود لتعيد ما كان لها من مجد مندثر وعز مفقود وحق مهتضم فعلينا أن نحصر على كياننا فلا ندع الوهن يتطرق إليه . ونحتفظ بقوميتنا فلا ندعها تفنى في

قوميات الأمم الأخرى وتذهب بينها شذر مذر . ولا يتسنى لنا ذلك ما لم نجرد سيفاً مصلتاً على هذا التذبذب الذى اعتورنا . ونألوا على أنفسنا بأن لا نغمده حتى يتوارى عن أنظارنا كل ما يشيننا ويزرى بنا وسمعتنا بين الناس .

ولترسم خطوات أحد بناء مجدنا وعظمتنا فى المحافظة على قومينا ولنتأس بعمر ابن الخطاب فى هذا الشأن فإنه خير أسوة وأحسن قدوة . أنظروا أيها السادة إلى عمر بن الخطاب كيف كان يحرص على القومية العربية ؟ وكيف كان يعمل لصيانتها والمحافظة عليها لتعلموا أن المحافظة على القومية ليست بدعاً من الأمور وما كانت قط شيئاً إداً .

بلغ عمر وهو بعاصمته أن حذيفة بن اليمان تزوج بامرأة نصرانية — لما كان أميراً على الحيرة — فبعث إليه عمر أن طلقها ، فبعث إليه حذيفة بقول له : لا أطلقها حتى تعلمنى أحلال ذلك أم حرام ؟ فأجابه عمر بقوله : لا وإنما لنساء الأعاجم خلافة وأخشى أن يصدوكم عن نساء العرب . فما كان من حذيفة إلا أن طلقها . هذه القصة تصور لنا مبلغ حرص عمر رضى الله عنه على القومية العربية وكيف كان لا يدع أمراً يشتم منه رائحة العيب بالقومية إلا عمل على إبادته قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء ، فلولا أن عمر كان يخشى إذا هوسكت على زواج حذيفة بهذه المرأة أن يتفشى تزواج العرب بغيرهم وبذلك يتطرق الوهن إلى جسم العروبة ما أمره بطلاقها ، إذ أن مثل هذا الاختلاط الجنسى يفقد العرب ميّزتهم ويبعدهم عن طابعهم ويكونون إلى الانحلال والفناء أقرب منهم إلى الخلود والبقاء ، وذلك ما خشى منه عمر . وحقاً أن عمر كان ينظر إلى الأمور بإلهام من الله ، فإن أمر العرب ما انتهى إلى ما انتهى إليه من زوال حكومتهم وتقلص سلطانهم إلا حينما تهاونوا بشأن قوميتهم ، ولم يحرصوا على مقوماتهم حرص زعمائهم وقادتهم . ولقد فطن هتلر وموساينى إلى ما فطن له عمر من قبل مئات السنين ، فمنع الأول قومه من التزاوج

بغيرهم ، وأصدر الثانى بعد غزو الحبشة قانوناً يقضى بمعاقة كل من يتزوج بحبشية من الإيطاليين .

ومن أشد الناس حرصاً على قوميتهم - الآن - الانجليز ، فهم جد حراس على أن لا يتزوجوا بغيرهم مهما طال بهم المقام فى البلاد التى انضوت تحت نفوذهم ، أوفى البلاد التى ترغبهم المصالح على الإقامة فيها ، بينما هم يرغبون من يقيم بينهم على الاصطباغ بصبغتهم . ولذلك تراهم محتفظين بطابعهم فى كل صقع يحلون فيه .

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يحرص على قومه من أن يدب إليهم من عادات الأمم الأخرى ما يضر بهم ويفسد من طبائعهم ويبعدهم عن مميزات العروبة التى امتازوا بها عن سواهم ، فكان ينههم عليه السلام أن يفعلوا به كما تفعل الأعاجم بملوكها .

فالدعوة إلى الاحتفاظ بالقومية والذب عن الكيان إنما هو ترسم لتلك التعاليم النبوية المشروعة وتأسى بذلك الإرشادات العمرية الحكيمة .

وليس فى هذا شيء من الرجعية أو دعوة إلى ما يعود بنا إلى الوراء أو إلى ما يعوقنا عن السير فى معركة الحياة الراقية كما قد يتطرق إلى بعض الأذهان بل إن أخذنا بأسباب المدنية الحديثة أو أية مدنية نريدها لأنفسنا لا تيسر لنا ولا تنتظم لنا حياة سامية ما لم يكن لنا كيان ثابت يتركز عليه أخذنا بأسباب التسامى فى الحياة . وهل يصلح العمل للتسامى مع ما نحن فيه من تبلبل واضطراب ؟ وهل نستطيع تمييز الخبيث من الطيب ومعرفة ما نأخذ وما ندع ما لم نكون مجتمعاً تسوده الوحدة ويعمه الانسجام . وحينئذ يتسنى لنا أن نعرف ما يتلاءم مع حياتنا وما لا يتلاءم أما مع هذا التبلبل الذى نحن فيه فلا يمكننا عمل شيء البتة ، لأن هذا التبلبل والتذبذب المستوليين علينا هما العقبة الكأداء فى سبيل تقدمنا ورقينا . فإذا لم تزل هذه العقبة عن طريقنا تعذر علينا النهوض على أقدامنا ، وعجزنا عن مقابلة الحياة بما يجب أن تقابل به . وذهبت كل جهودنا عبثاً وقضينا الحياة سهلاً . ألا ترون أن لكل منا مشرباً

ولكل فريق غابة ، ولكل جماعة رأياً ، وما دمننا كذلك ثقوا بأننا لا نتفق على رأى ولا نصل إلى غاية ولا نحقق أمنية ، وأحربنا أن لا نعد من الأحياء أما إذا أردنا أن ننتفع بالحياة ونؤدى فيها واجبنا ونشترك مع الأحياء الذين يعملون لرقى الإنسانية ورفع مستواها فعلينا أن نركز أنفسنا على نقطة أساسية لا نصدر إلا عنها ولا نعمل إلا لها ، كما ركز الآباء والأجداد أنفسهم على نقطة معينة ما صدروا إلا عنها ولا عملوا إلا لها فاستقام لهم الأمر وفاموا بواجبهم وأدوا أمانتهم فى الحياة على الوجه المطلوب . ولا يكافنا ذلك غير العمل على تعريب البلاد وكل ما فى البلاد من ناطق أو صامت وذلك بإحياء الأسماء العربية القديمة فنسمى مواليدنا بأسماء وزهير كما سمي السباعى ابنه بهما وغير ذلك من الأسماء كقصى ولؤى وكعب وخالد وطارق وزيد ومروان وقيس وهشام ومعد ومضر وعدنان ، هذا للذكور وللأنثى ليلي وسعدى ولبنى وهند وثريا وبنينة وعزة وعبرة والرباب ، ولا تقتصر على هذا بل نسمى شوارعنا ومنتدياتنا ومياديننا بأسماء المواقع والوقائع التى تجلت فيها بطولة العرب وعظمتهم كأن نسمى هذا الميدان بميدان القادسية وذاك بميدان وقعة الصواري وذلك بميدان اليرموك والآخر بميدان بدر . وهكذا النوادي وجذالو نسمى الأحياء بأسماء القبائل ذوات التاريخ المجيد فى تاريخ العروبة والإسلام ، وللشوارع أسماء الأبطال والقادة من العرب الذين رفعوا لواء الإسلام عالياً . وكذلك من الواجب علينا أن نلغى هذه الألقاب التى نحملها والتى تشعرنا دائماً بأننا مجموعة لا نتمت بعضها إلى بعض بصلة ونستبدلها بألقاب تقر بنا من بعض ويجب علينا العمل على توحيد الأزياء كما دعا إلى ذلك الأستاذ أبو عبد المقصود ، والذي هو فى الأهمية أولى بالتقديم من كل ذلك لتعريب البلاد إغراء البدو على سكنى الحضر وترغيبهم فى ذلك بكل الوسائل الممكنة ونقل عوائل برمتها ولو بالقوة لإسكانهم فى حواضر الحجاز فإن البدو مادة الأمة ودعامتها وعمودها الفقرى الذى لا يمكن لشعب أن تقوم له قائمة بدونهم إذ يتوفر فى البدو الذكاء والشجاعة والاحتمال والصبر والنخوة والكرم وروح التعاون والتعاقد شائع بينهم يتمثل لكم ذلك فى تعصبهم لبعض . والحق

أن مميزات العروبة وخصائصها لا تتمثل إلا فيهم هذا عدا ما يمتازون به من وحدة الخلق والسحنات وتقارب الألوان والقامات ، وانسجام الأشكال والهيئات ثم هم قنئ الأتوف مقوموا الحواجب صباح الوجوه خفاف الحركة أقوياء البنية فيهم ظرف ولديهم رشاقة ولا ينقصهم شيء إلا جهلهم بأنفسهم وتاريخهم وما يجب عليهم حيال دينهم وبلادهم وما تتطلبه الحياة السامية منهم . فإذا ما عمل على تحضيرهم وتنمية مواهبهم ولقنوا ما هم بحاجة إليه من علوم ومعارف تكون لنا منهم في الحواضر شعب يستطيع أن يهضم بمعدته القوية كل العناصر الدخيلة ويهصر في بوتقته كل شيء يغيره ويتنافى على مميزاته وخصائصه ويحيله إلى مادة نافعة في الحياة .

وتنظيم أمر المهاجرين إلينا تنظيماً يفيدهم وبفيد البلاد منهم أمر بالغ الأهمية فعلىنا أن نعمل ذلك حالا .

وبذلك يستحيل هذا المجتمع المذبذب إلى مجتمع عربي قح له سمته وله طابعه وخصائصه .

ثم إن على الموكول بهم شأن الفن المعماري في البلاد أن يختاروا لنا نسقاً فنياً خاصاً لا تتعداه في بناية بيوتنا لتكون بناياتنا منسجمة مع بعضها ويكون لنا في الفن المعماري سمت وطابع كما كان لأبائنا فن معماري عليه سمتهم وطابعهم .

وواجب المدارس في المساعدة على تعريب البلاد عظيم فهي التي بيدها النشأ وأمر تكييفه منوط بها وحدها وتستطيع المدارس أن تخرج لنا من بين جدرانها جيلاً يعرف كيف يحتفظ بقوميته وعروبه إذا أذكت في التلامذة حب العرب والعروبة بتعريفهم ما كان لأبائهم الأقدمين من دولة شاحخة وسلطان عريض ونفود بالغ الغاية التي ما بعدها غاية وما أشاد أجدادهم من قصور وحصون وما برزوا فيه من علوم وفنون وما كان لهم من صفات حميدة وأخلاق رضية ومزايا هي المثل الأعلى في السمو الإنساني وكيف كان عدلهم في الأحكام وأين كان مجلسهم بين الأنام ؟ وما تركوا من تراث ينطق بعلو كعبهم في كل ما زاولوه من أعمال ولا بد من التنويه بما نال

العروبة والعرب في العصور الأخيرة من غمط لحقوقهم وعدم العرفان بحميلهم ونكران ما أسدوه للبشرية من أياد بيض ما كان لوجه الإنسانية أن يشرق لولاها ليشب النشء نائراً قلقاً متحفزاً لاستعادة حقوقه المغتصبة وإعادة مجده القديم .

ومن العوامل الفعالة في إزالة ما فينا من التبيل العمل على استثمار هذه الأرض القاحلة باستخراج كنوزها والنبش عن دقاتها والتنقيب عن الثروات والآثار المطمورة والبحث عن العيون المهجورة لإصلاح ما أفسده الإهمال وتصعيد المياه من جوف الأرض بكل الوسائل الممكنة وبناء السدود لإحياء الأرض الموات وتربية الأنعام والمواشي وتنمية الدواجن فإن البلاد إذا استحالَت إلى جنان نضرة تطالع سكانها بخضرتها وترنّدهم بشمرتها تُغري من فيها بالانساب إليها ووقف حبه عليها .

ولا يفوتني أن أقول قبل أن أبارح موقفي أننا في حاجة شديدة إلى تقاربنا وربط أواصرنا ببعض لنحس بإحساس واحد ونشعر بشعور واحد ومن أهم الأسباب في تقاربنا أن لا يجهل بعضنا على بعض وأن يدعو الأخ أخاه والتقريب قريبه والزميل زميله والصاحب صاحبه بأحب الأسماء إليه فإن النفوس مجبولة على حب من يتودد إليها ولو باللفظ الحسن إذا لم يكن صادراً عن غش وتدليس ولكنه صادر عن حب وإخلاص . ومن أقوى الروابط بين أبناء الوطن الواحد المصاهرة وهذه المصاهرة قد تكون متوفرة بين الحضريين إلا أنها مفقودة بين الحضري والبدو فلنعمل على تمهيد السبيل للتزواج بين القريبيين لأن هذا البعد بيننا وبينهم جعلنا لا نشعر بما يشعرون وهم بدورهم لا يشعرون بما نشعر بل ربما كان البدوي يحتقر الحضري ويضمّره له العداة وكذلك الحضري يحتقر البدوي ويضمّره له شيئاً يشبه العداة . وما ذلك إلا لفقدان الروابط التي تقربنا من نفوسهم ونقربهم من نفوسنا إما إذا كنا وإياهم مرتبطين بروابط المصاهرة تدب محبتهم إلى قلوبنا وبالعكس وبذلك نستطيع أن نعيش نحن والبدو إخواناً متحابين في الوطن الواحد والكل منا يعمل لغاية واحدة نعم إن مثل هذه المصاهرة بين البدو والحضر من أهم العوامل في تعريب البلاد وإزالة هذ

التذبذب المشين لما ينتج منها من نسل لا يتجهم لعروبتة ولكنه يعرف كيف يحتفظ
بها ويرفع من شأنها .

أيها السادة :

إن الذكريات التي أطافت بي وأنا أسطر هذه المحاضرة أوحى إلى بهذه الأبيات
فخاطبت بها هذا الوطن الذي يلذ لي أن أخاطبه كثيراً .

يا موئل الأبرار والـ	أخيار يا مشوى الجدود
يا موطن الأبطال والـ	قيال والعز التليد
يا مربض الآساد والـ	أشبال في الماضي البعيد
يا مصدر القرآن والـ	عرفان وإخلاق الحميد
إين العروبة في حما	ك لها الجحافل والبنود ؟
إين البطولة والحمية	ة والتسامي للخلود ؟
أنت الذي ملا البس	يطة بالجياد وبالجنود
وحططت عن هام الورى	نير المظالم والجحود
ورفعت الوية الفضية	لة فوق ناصية الوجود
وتركت في كل البلا	د مآثر الحكم الرشيد
بادت حضارات الأولى	حكوا الممالك بالحديد
وزهت حضارتك التي	بنيت على تقوى وجود
لهفى على تلك الجدو	د المشرفات على الجدود
ما كنت مذ كانت أوا	ثلنا سوى الوطن المجيد
ماذا ذهاك بما أرى	من ذل عادية الجود

يا موطن الأحرار ما عهدى بك الوطن البليد
خذ من فؤادى أو دى ناراً إذا عزَّ الوقود
وحد بها شعباً يكا د من التفرق أن يبيد

* * *

يا صيحة الوجدان دو ى فى المغاور والنجود
علّ الذى نرجوه من مجد الحياة لنا يعود
ونعود مثل جدودنا ويعود ماضينا المجيد

شخصية الأمة العربية ومقوماتها (*)

بعد الإسلام

لم يكن للأمة العربية — قبل الإسلام — شخصية عالمية قوية يخشى غضبها ويرجى رضاها ، بل كانت شخصيتها محلية بدائية تسودها الفوضى وتفتك بها الأحقاد ، ويستبد بها الجهل . لا تعنى بأمر العالم ولا يعنى العالم بأمرها ، إلا كما يعنى بالأم البدائية وسكان المجاهل .

فلما جاء الإسلام أعطاهما كل مقومات الشخصية العالمية القومية ، وأخرجها من خلف جبالها إلى الناس برسالة إلهية رفيعة . اعتنقتها ودعت الناس كافة لاعتناقها ، وكانت رسالتها فى الحياة تحرير الأفكار من التجمد ، والضمائر من الخوف والنفوس من الخنوع . ونبذ النعرات الدينية والعنصرية والإقليمية التى بسببها يتعادى الناس ويحتربون ، ودعوة الناس جميعاً إلى وحدة عالمية كبرى ليخلص الناس من الاشتغال بالخصومات السخيفة ، إلى الاشتغال باجتلاء الكون وأسراره ، والكشف عن غوامضه وكنوزه والقوى الكامنة فيه لينتفع الإنسان بذلك وليسخره لمصلحته ليكون بحق خليفة الله فى أرضه ، وليقتنع عقله ببارئ السماء والأرض وما بينهما ، فلا يجعل معه نداً من صنع يده يذل له . « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون » . « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

(*) أُلقيت هذه المحاضرة بندوة « الأسياف » المنعقدة فى دار الدكتور نضر الدين الأحمدي الظواهري عضو الندوة ليلة الخميس ٢٧/٨/٧١ هـ ٢٣/٤/٥٥ م .

وبدأت الأمة العربية بأصنامها فجعلتها موطيء أقدامها سواء أ كانت تلك الأصنام حجراً أو بشراً ، ومحت الدعوة الإسلامية الفوارق العنصرية ، وألغت التمايز بين الألوان ، فلا ميزة للون على لون « ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأشادت بالعلم وأهله « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » ، وفرضت طلب العلم على الرجال والنساء « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وتركت للناس الحرية في اختيار النظام الذي يحبون أن يحكموا به ، ولم تقيدهم بشيء إلا بالشورى « وأمرهم شورى بينهم » ، « وشاورهم في الأمر » . والنظام الملكي في الإسلام من أسوء نظم الحكم ، لما يصحبه من إذلال الأعزة ، وإفساد الأرض ، واستعباد الناس ، واغتصاب الأموال ، وانتهاك الأعراض « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » ، « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » . ولذلك لم يرضه رسول الإسلام لنفسه ، ولم يوص به أمته من بعده ، ولم يمل إليه أحد من الخلفاء الراشدين ، بل اختاروا نظاماً هو أقرب ما يكون إلى النظام الجمهوري ، ولما أراد سعد بن عباد أن ينصب نفسه ملكاً عليهم قتلوه ، وهو من هو في صحبته لرسول الله وفضله في الإسلام وبلائه في سبيله .

كان من الأمة العربية ذلك في وقت كانت فيه الدنيا من حولها لا تعرف إلا النظام الملكي في واقعها . إذ كان سائداً في فارس وفي الروم وفي غيرها من البلاد . ولما انحرف العرب إلى النظام الملكي فقدوا شخصيتهم ومكنوا للنعرات العنصرية أن تبعث من مقابرها وتعيث في الأرض فساداً وتشيع في الدولة العربية انحلالاً ، وتحيل الدعوة الإسلامية جدلاً وأقوالاً .

وقد عنيت الدعوة الإسلامية بكل نشاط حيوي للإنسان ، وأبدت رأيها فيه . ووضعت الحلول الحاسمة لمشاكله ، فحرمت كل ما يضر بالإنسانية جماعات وأفراد .

فحُرمت استعباد الإنسان للإنسان أيًا كان دينه ، وأيًا كان لونه ، وأيًا كان مركزه الاجتماعي ، فمن وحى هذه الدعوة قال عمر ابن الخطاب لابن عمرو ابن العاص أمير مصر وحاكمها حينما ضرب القبطي : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وأعطى السوط للقبطي وقال له اضرب ابن الأكرمين .

وساوى الإسلام فى القضاء بين الرجل والمرأة ، والحاكم والمحكوم ، وتدرج فى إبطال الرق كما هو أسلوبه فى حل المشاكل الإنسانية . وأبطل الربى والميسر ، وحرم الاحتكار والاكتناز ، وجعل للسائل والمحروم حقًا معلومًا فى أموال الأغنياء . « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وجعل للخادم والأجير حق التساوى مع مخدوميها فى المأكل والمسكن والعلاج والتعليم ، ولم يحظر على الخدم والأجراء ممارسة أى نوع من أنواع العمل حتى الحكم إذا أبدوا صلاحيتهم له وأنتخبهم الناس . وترك للمرأة الحرية الكاملة فى اختيار الزوج وامتلاك المال واستثماره وساوى بينها وبين الرجل فى كل ذلك وهى تقف أمام القضاء مع الرجل موقف الند للند . وهو أن أنقصها فى الميراث إن كان لها شركاء فيه من الرجال فذلك لأنه لم يكلفها قط بالنفقة على أحد بل أُلزم الرجال بالنفقة عليها . وترك لها حرية قبول تلك النفقة أو رفضها . وإن جعل شهادتها أقل من شهادة الرجل فلأن ما تعانيه من آلام الحمل والولادة . وما تدره من لبن وما تنزفه من دم قد يجعلها تنسى بعض الدقائق التى تقتضها الشهادة . أمام القضاء والقضاء دقة وتحري ونزاهة واحترار .

وحرية العقيدة . فى الإسلام مكفولة فهو لا يكره أحداً على ترك عقيدته . « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » وكذلك حرية العمل مكفولة فى الإسلام « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً » والإسلام لا يعمط حق المحسن فى عمله أيًا كان دينه أو لونه أو جنسه « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » . وحدود الإسلام لا تطبق إلا إذا أدبت التزامات الإسلام فالسارق لا تقطع يده فى مجتمع مختل الموازين لا تسوده العدالة الاجتماعية الحققة .

وعقاب جريمة الزنا لا ينفذ إلا بشهادة أربعة شهود عدول شهادة لا تتحقق إلا على مستهتر داعر مستخف بالآداب العامة غير محترم لشعور الجماعة غير مبال بجرمة المجتمع الذي يعيش فيه . وجعل الإسلام حدوداً للحاكم يجب أن لا يتعداها . فلا يستأثر برأى ولا بمال ولا بحكم ، ولا بأسرة ، ولا بطائفة أو رهط يركبهم أعناق الناس ثم أوجب على المحكومين طاعته . فإذا أخل بالتزاماته . وتعدى حده فلا طاعة له على أحد . بل أوجب تنحيته من الحكم ولو بالقوة . وقد نحى المسلمون عثمان بن عفان عن الخلافة بالقوة . لما قيل أنه استأثر بأموال الدولة ووظائفها فوجهها لأقربائه . وعلى كثرة ما قيل في هذه الواقعة . فإننا إنما نسوق ساقطة سلفت لأمة العرب حينما كانت محتفظة بمقومات شخصيتها . التي برزت بها على العالم .

ومن المقومات الشخصية للعرب أن طالب الولاية لا يؤلى . حرصاً على حرية الناس من أن يتولى أمورهم من يرغبهم على ولايته بالقوة أو بالمال أو بغير ذلك من أنواع القدرة وحينما قال بعضهم لعبد الله بن عمر : أمدد يدك نبايعك على الخلافة قال : والله لو أعلم أن عزتين تنتطحان على توليتي الخلافة ما قبلتها فكيف أقبلها ولم يجمع الناس على ذلك ؟ — أو كما قال — ويقول أبوه يكفي من آل الخطاب عمر والله لا أحتملها حياً وميتاً . بهذا وبأمثاله من المثل العالية التي اعتنقها أمة العرب وعاشت لها وماتت في سبيلها تكونت شخصيتهم العالمية القوية ، تلك الشخصية التي صهرت في بوتقتها كثيراً من الأمم واللغات . واحالتها إلى أمة عربية ذات لسان عربي مبين . والتي بلغت في عصرنا سبعين مليوناً من الأنفس تسكن في رقعة تمتد من بوغاز جبل طارق إلى منتهى الخليج الفارسي غرباً وشرقاً . ومن جبال الأحقاف إلى جبال الأناضول شمالاً وجنوباً . ويتخذ أربعمائة مليون مسلم في شتى أنحاء الأرض من موطنها قبلة ومن مجموعتها قدوة . ولكن هذا الامتداد في الرقعة وهذه الكثرة في العدد . في حالة مؤلمة . فهي الآن . كما كانت قبل الإسلام أمة لا شخصية لها . تسودها الفوضى وتفتك بها الأحقاد ، ويستبد بها الجهل . فبعض بلادها تعاني الاستعمار المباشر بكل مافيه من وقاحة واستهتار . وبكل مافيه من وحشية وغلظة وذلك

في شمال أفريقيا ، وفي البلاد الواقعة على ساحل الخليج الفارسي وفي أطراف اليمن .
وبعضها تتمثل فيها الاستعمار بمثل ما كان يتمثل في حكم الروم للشام بواسطة
الغساسنة ، وحكم الفرس للعراق بواسطة المناذرة ، وحكم الحبشة لليمن بواسطة
الأبارة . وبعضها تتمثل فيها الحياة المستقلة استقلال سكان قلب الجزيرة العربية
في جاهليتهم . مع الفارق الذي أحدثه التطور العلمي والسياسي والاجتماعي في حياة
الناس لقد فقدنا مقوماتنا الشخصية ، ولم تعد لنا أي مقومات شخصية تقف بها
في معترك الحياة ، فالمسلم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه لأنَّ هذا الاسم أصبح علماً
لكثير من البلبلة والغموض في أذهان معتقيه . وأصبح داعية الإسلام بيننا رجعيًا
متعصبًا ، وداعية العروبة مأفونًا جاهلاً ، وداعية الرأسمالية عبداً خائناً ، وداعية
الشيوعية يسارياً متطرفاً ، وداعية الحرية زنديقاً متبجحاً ، وداعية الاستسلام للأمر
الواقع انهزامياً أحق ، وداعية العلم مارقاً ملحدًا ، وضاعت الحرية وضاع الإسلام
وضاعت العقيدة ، وضاع العلم بين تناكر الدعوات وصراخ الدعاة . واقتنصت منا
فلسطين . واستشهد منا شباب وكهول بسيف الخداع والتضليل على أرضها وشتت
شمل مليون عربي من أبناء فلسطين . وبكينا المأساة كأحر ما يكون البكاء
وبينا نحن شرقي بالدموع يحالف نوري السعيد الغرب . ويهدد الأتراك سوريا .
وتتوالى علينا لطمات إسرائيل ، ولا ندري ما سيأتي به الغد .

لماذا يستهتر العالم بنا فلا يستمع لشكوانا المكرورة ؟ ولماذا تستعمر فرنسا
شمال أفريقيا ولماذا يهددنا الأتراك في سوريا ؟ ولماذا تكون أطراف اليمن مهاداً
للإنجليز ؟ ولماذا يعتبر الخليج الفارسي منشأ ثانياً لبريطانيا ؟ ولماذا يكفر نوري السعيد
بنا وهو منا ويؤمن بالغرب ؟ وأخيراً لماذا ينقسم العالم إلى كتلتين ونحن بينهما
كالكرة بين أقدام اللاعبين ؟

أجوبة هذه الأسئلة تكمن في شيء واحد هو أن الأمة العربية فقدت كل
مقومات الحياة الصحيحة وبذلك فقدت شخصيتها فهانت على نفسها وهانت على الناس

فنحن لسنا ديمقراطيين ، ولسنا شيوعيين ، ولسنا يهودا ، ولسنا إسلاميين ، وبالتالي لسنا عربا . فليس لنا عقيدة تتحمس لها . وليس لنا مقومات شخصية نرتكز عليها ، أليس هذا هو الواقع المؤلم ؟ أليس الحاكم خصم للمحكوم ؟ والمحكوم يتربص بحاكمه الدوائر والمجتمعات تعيش في بلبلة فكرية وعقيدية وإدارية ، وموازن العدالة مختلفة . ووجهات النظر في الدين مختلفة . ونظمنا القضائية متناكرة . والحريات مقيدة ونظم الحكم استبدادية في شتى ألوانها ، والحدود في بعض بلادنا تقام على الضعفاء ولا تقام على الأقوياء ، وتحارب بعض الفنون والعلوم كما يحارب الرجس والمنكر ويضطهد أصحابها . والنّعرات القبلية سائدة في بعض بلادنا والطائفية في بعضها الآخر . والأهواء دين متبع ، والحكام آلهة يجب أن تعبد . وعلماء الدين سدنة الآلهة المقدسون الذين يجب أن تلغى أمامهم العقول وتقدم لهم المواهب والملكات الإنسانية قرايين يتصرفون فيها كما يشاءون ؟

والكتلة الشرقية والكتلة الغربية والصهيونية العالمية تعرف ذلك بل هي أحدُ بصرًا منا لذلك . ومن ذلك وجدت الثغرات التي تنفذ منها الصواريخ المدمرة . وتصيينا في مقاتلتنا . ألم نسمع كثيراً من الاستعمار الغربي وهو يتشبث بالبقاء في بلادنا أنه يقيم لحماية العرش . أو أنه يقيم لأن المستوى المعيشي في بلادنا منخفض ويخشى من تفشي الشيوعية فيه فبقاؤه لم يكن إلا لرد هذا الخطر . أو بقاؤه للمحافظة على الأقليات أو بقاؤه لرد عدوان المعتدين بحجة أنه ليست لنا القوة العسكرية الذي يطمئن إليها . أو أننا لسنا أهلا لحكم أنفسنا بأنفسنا فوصايته ضرورية علينا ؟ أو ما شابه ذلك من ذرائع ما كان له أن يتذرّع بها . لولا أنه وجد الثغرات التي تسوغ له مثل هذه الذرائع التي يسومنا الخسف بمنطقها . وهو يعرف أنه يقول هذا الكلام لأمة فقدت كل مقوماتها الشخصية . فالمقومات الروحية قد كفرت بها أما المقومات المادية فليس لها منها غير ما يراه لدى زعمائها وقادتها وللميمين عليها من كرسى الحكم الفخم ، أو الملابس المزركشة ، أو الأوسمة البراقة ، أو القصر الشامخ أو الدارة

الأنيقة . أو غير ذلك من مظاهر الفخخة الزائفة . وذلك لا يغنى شيئاً في إثبات الشخصية ومواقف الشرف والكبرياء .

هذه كلمة ، استعرضت بسرعة في صدرها المقومات الشخصية التي جاء بها الإسلام وأبرز بها الأمة العربية للناس وجعل منها أمة ذات شخصية عالمية قوية بعد أن كانت أمة بدائية محلية لا خطر لها ، وأبنت بعد ذلك كيف تهافتت شخصيتها وعادت سيرتها الأولى بعد أن تنكرت لمقوماتها حتى هانت على نفسها وهانت على الناس ، واجترأ عليها البعيد والقريب ، واقتنصت أراضيها ، وهي مهددة في ما بقي منها . وأنا إذا عرض ذلك فإنما أعرض الواقع كما هو في نظري ، وأرى أن العودة إلى مقوماتنا الشخصية التي جاء بها الإسلام هو العلاج الوحيد للخروج من المحنة التي نحن فيها ، وهي وجهة نظر أعرضها لمناقشتها ، فإننا الآن في وضع لا يستدعي منا الجدل وإنما يستدعي منا العمل ، ونحن في ظلال ثورة مصر وما تحمل في فلسفتها من اتجاه سليم ، وآراء سديدة ، وآمال يتمنى المخلصون للعروبة أن تتحقق ، يجب علينا أن نسهم بأفكارنا فيما نراه مخرجاً للأمة العربية من محنتها ، والله من وراء القصد وهو ولي المخلصين .

أتأكل الرطب؟

- أأكل الرطب؟
- إنه غذائي الطبيعي .
- أيهمك أن تنتعش زراعة النخيل؟
- بالتأكيد .
- أتحب من يصنع ذلك أو يسخطك صنيعة؟
- بل يسعدني ذلك .
- ماذا تصنع بمن يجتث النخل . ويمنعك من زراعته؟
- أضرب على يده .
- ولم تصنع به ذلك؟
- لأنه معتد أثيم يريد أن يفقدني ثروتي ورخائي .
- * * *
- إنك إلى الآن تجيب أجوبة صحيحة ولكني أريد أن أسألك أسئلة أخرى
- تفضل .
- أبدوى أم حضري أنت؟
- بدوى .
- بم تبني منزلك؟
- بالشعر أو باللبن .
- أتود أن يكون لك بيت مبني بالأسمنت والحديد .
- كيف لا أود ذلك؟
- وإذا بنى لك هذا البيت أتججم عن إضاءته بالكهرباء؟
- لا .

- أتتجهم عن الصعود إلى صديقك في الدور العاشر بالمصعد ؟
— لا .
- أتتجهم عن امتطاء القاطرة والباخرة والسيارة والطيارة لقطع المسافات البعيدة ؟
— لا .
- أتتجهم عن استماع المذياع ؟
— لا .
- أيسرك أن يكون بمنزلك مكيفات هواء وفيرجيدير ؟
— نعم .
- أتحب لأمتك أن يكون لديها من قوة الطاقة ما يجعلها في منعة ورخاء ؟
— أحب .
- أتحب أن تتكلم مع النائين عنك بماركوفى ؟
— أحب .
- أترى لو مرضت — لا قدر الله — وقيل لك إن علاجك لا يحتاج إلا إلى
بضعة حقن تحت الجلد أو فى العضل أو فى الوريد ، وبضعة حبوب من
الفيتامينات المتنوعة أتتجهم عن العلاج أو تقبل عليه ؟
— أقبل على العلاج برغبة شديدة .
- أتعلمل المطهرات ومبيدات الحشرات حرصاً على النظافة والصحة ؟
— نعم .
- ألا ترى فى استعمالك لكل ذلك واستخدامه لمصلحتك ورفاهيتك
كفراً بالله أو خروجاً عن دينك ؟
— لا .
- ألا تعلم أن كل ذلك من عمل الإنسان المتعلم المستنير ؟
— أعرف ذلك .

- أتود لنفسك أن تكون متعلماً مستديراً مثله .
- لا أود فقط بل أريد بذل جهدي وطاقتي لأكون مثله .
- أتعرف أن كل ذلك نتيجة لعلوم شتى منها الفلسفة والمذنى والفلك والطبيعة والكيمياء والطب والتصوير والموسيقى والحساب والرياضيات بأنواعها .
- لا أعرف منها إلا أسماءها وأود لو تعلمتها لأكون ملماً بها .
- كيف تتعلمها . وبعضهم يحرمها ويقول إنها كفر ؟
- ومن هذا البعض الذى يحرمها ؟
- يزعمون أن هذا البعض من العلماء .
- أيمتنى هؤلاء العلماء السيارة والطيارة والباخرة والقاطرة ؟
- نعم يمتنونها .
- أستمعون إلى المذيع ؟
- نعم إنهم يستمعون إليه ؟
- أيتكلمون فى ماركونى ؟
- نعم إنهم يتكلمون .
- أفى منازلهم مصاعد ؟
- نعم .
- وفيها مكيفات هواء وفريجيديرات ؟
- نعم فيها بل إنها لا توجد فى أكثر البيوت ولكنها توجد فى بيوتهم .
- أيعالجون أنفسهم بالطب الحديث ؟
- لا يعالجون أنفسهم إلا فى أعظم المستشفيات وأرقاها .
- أينضعون لأطباء أعظم المستشفيات ؟
- هم تحت أيديهم كالخشب فى يد الصانع .

- أستمعون إلى الموسيقى؟
- إنهم مغرمون بها .
- كيف يبيعون لأنفسهم أكل الرطب ويحتشون النخلة من الجذور ؟
- هكذا منطقهم .
- إنهم ليسوا علماء إذا ؟
- فماذا تسميهم ؟
- أسميهم البلداء .
- لماذا نسميهم بهذه التسمية ؟
- لأنهم يريدون أن يأكلوا ولا يريدون أن يحتطبوا أخراهم الله .

عمر بن أبي ربيعة

مقدمة (*)

إذا كانت الخرائب وتلال الأقدار التي امتلأ بها التاريخ مثنوى العناكب والحشرات التي أفسدت علينا حياتنا الصحيحة فإن في هذا التاريخ نفسه أدوات التطهير التي إذا أحسنا استعمالها ظفرنا بحياة صحيحة سليمة مبرأة من العيوب والأقدار . فالماضي بكل ما حوى من صدق وكذب ، وخطأ وصواب ، وغلو واعتدال ، المادة الأساسية التي نستبين من خلالها مواقع أقدامنا ، فلا نضعها إلا على أرض صلبة ، لأننا بقراءة التاريخ نستطيع تجنب الأخطاء والتعرف على مواقع الإصابة .

ونحن الآن نعيش في عصر واعي لا يقتنع بكل ما يقوله التاريخ على أنه حقيقة لا تقبل المناقشة ، فقد مضى عصر التقديس لكل شيء ، وأصبحنا في عصر التحليل والتشريح ، فمن كان يستحق التقديس قدسناه ، ولو نعتة الماضي بأنه شيطان رجيم ، ومن لا يستحق التقديس وضعناه تحت أقدامنا ، ولو أضفى عليه الماضي كل ماله من حالات الإجلال والتفخيم .

ولذلك فإن من الخطأ أن نهمل الماضي ، أو نصغي لمن يقول لنا : علينا أن نذر الماضي ونتطلع للمستقبل ، إن قائل هذا لا يعنى ما يقول : أو هو لا يتبصر ما يقول : كيف نستطيع إهمال الماضي وفيه الحجة ، ومنه الغذاء ، وفيه الاستثارة ؟ وهل نستطيع معرفة الجديد دون أن نستعرض القديم ؟ ومن أحداث الماضي تتبصر ماضيأتى به المستقبل . وإذا كفر كل الناس بالتاريخ ، فإننا كأمة عريقة ذات أمجاد تالدة لم تخل منها بقعة من بقاع الأرض ، لا يمكننا أن نكفر بالتاريخ إلا إذا أمكننا أن نكفر بأنفسنا .

(*) حينما صدرت هذه المحاضرة في كتاب مستقل قدمت لها بهذه المقدمة وأنا أثبتتها هنا ،
لضرورة إثباتها .

والشعب الحجازى لم يكن شعبا سطحيا أو شعبا مستحدثا ، وإنما هو شعب تأصلت جذوره فى أعماق الحضارات الإنسانية

وإذا أخرجنا الشعب الحجازى من تاريخه أخرجناه من الوجود الإنسانى ، إذ هو فى حاضره اليوم لا يستند فى إثبات وجوده على شىء ، فإسهامه الماضى فى بناء الحضارة الإنسانية هو الذى جعل له كيانه الخالد بين الشعوب الحية ، ولا يمكن للحضارة الإنسانية الحاضرة أو المستقبل أن تستغنى عما قدمه هذا الشعب العريق من زاد هو الباب لكل حضارة فى أى ركن من أركان الأرض .

إذاً فلا بد لنا من الرجوع إلى الماضى . ولابد لنا من الوقوف أمامه وقفة طويلة إذا أردنا أن نثبت إلى مكاننا الطبيعى بين شعوب الأرض قاطبة ، وبقدر ما نبعد عن تاريخنا يكون بعد المسافة بيننا وبين مكاننا الذى يجب أن تتبوأه بين الناس .

إن الذين لا يحبون أن نعود إلى التاريخ يريدون أن نسير فى ركب الأحياء ، كما تسير الأمساخ فى (السيرك) تلك التى لا تثير فى النفوس غير الهزء والسخرية ، أو العطف والإشفاق . ثم لا شىء إلا أن ينفحونا بما تجود به أنفسهم الكريمة أو اللثيمة كأجر لما قضوه معنا من أوقات الفراغ طلباً للتسلية والترفيه .

يجب أن نعرف من نحن ؟ ولا نعرف من نحن إلا من تأريخنا ، وإذا عرفنا من نحن نعرف أى طريق نسلك ، وأى هدف نريد . وسوف لا يكون حينذاك هدفنا كهدف صاحب (السيرك) الحصول على عدد كبير من المتفرجين ليحصل على كمية كبيرة من النقود ، كلا ، فسيكون هدفنا أسمى من ذلك بكثير .

دفعنى لأن أقول هذا فى مقدمة محاضرتى عن عمر بن أبى ربيعة بعض الناس الذين هم كالنعامات ليس لها خفة الطيور ، وليس لها صلابة الجبال ، ويدسون أنوفهم فى كل شىء وهم لا يحسنون صنعا ولا يملون بوجودهم مجلسا إلا مجلسهم فى حدائق الحيوان .

إن لنا خصائص ومميزات . وهذه الخصائص وتلك المميزات تكمن في تأريخنا ، فإذا افتقدنا خصائصنا ومميزاتنا انعدمت الفائدة من وجودنا لأننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نفرض شخصيتنا على أحد ، أو تثبت وجودنا — عند اللزوم .

ونحن لا نستطيع أن نقتبس من حضارات الأمم المختلفة ما يفيدنا ، إلا إذا عرفنا ما يصلح لنا ، وما يجمل بنا ، وما يتفق مع أمزجتنا ومشاعرنا ، وموروثاتنا وتقاليدها . والذين يقولون لنا إن على أمزجتنا ومشاعرنا أن تتكيف بما يتلاءم وحياة العصر الحديث دون أن تنقيد بشيء من القديم ، يحكمون علينا بفناء الشخصية أو بمسخها على الأقل ، وهذا مالا يرتضيه لأمته وشعبه ونفسه ، إلا كل من كفر بأمته وشعبه ونفسه .

نحن عرب ومسلمون . والعروبة والإسلام لا ينفران من كل حسن وصالح . ولكنهما ينفران أشد النفر من إخماء الشخصية العربية الإسلامية واندماجها في غيرها ، بحيث لا تصبح لها علامة فارقة تميزها عن سواها .

إن الله خلقنا شعوباً وقبائل لتتعارف مع بعض ، لا لتندمج في بعض ، أو تفتى في بعض . علينا ألا تنكر الحضارة من الحضارات الإنسانية . ولكن علينا ألا تنكر لأنفسنا أولاً وقبل كل شيء . لقد قابل آباؤنا في عصورهم الذهبية حضارات الهند والصين والرومان والفرس والمصريين ، فلم يتنكروا لها ، ولكنهم هضموها ، ثم طبعوها بطابعهم العربي الإسلامي ، فأفادوا واستفادوا ، وكذلك فعل الغرب فأخذ من حضارتنا العربية الجيدة والنافع وصبغه بصبغته ووضع عليه طابعه . واحتفظ آباؤنا بشخصيتهم وأورثونا إياها . وعلينا أن نتأسى بهم فنقبل على هذه الحضارة الغربية الجارفة إقبال من يعرف ما يجب أن يؤخذ ، وما يجب أن يلفظ . ولا نقسر أنفسنا على قبول ما لا يتفق وموروثاتنا ، من مبادئ المدنية الغربية وما فيها من سخر وحطة ورقاعة وتضليل وغدر إلخ وبذلك نستطيع أن نسهم إسهاماً فعالاً في بناء الحضارة الإنسانية ، أو في بناء الجانب الإنساني الرفيع المشرق في الحضارة الإنسانية العامة ،

ونورث أبناءنا والأجيال المقبلة شخصيتنا التي ورثناها عن آبائنا ، كما نورثهم بذلك مجد المساهمة في دفع المواكب الإنسانية إلى السمو والكمال .

* * *

والآن ستجد أيها القارئ العربي المسلم قطعة من تاريخنا ، أقدمها لك في محاضرة موجزة ألقيت في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة بقاعة بطل الحرية « عرابي » المفتري عليه .

وسوف تجد في تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازي ، تطورات المجتمع في فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذي قام بنشر الدعوة الإسلامية ، فأقام دعائم الوحدة الإنسانية على أسس قوية خالدة ونشر لواء العدالة والحرية والمساواة بين أجناس عامة البشر ، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم ، وكيف كانت كلمات الإيثار ، والإخاء ، والإخلاص ، والمبدأ ، والعقيدة ، والتضحية ، وكل المعاني الإنسانية الرفيعة ، شخصيات تسير في الحياة وتحقق معانيها بالأعمال ، ثم كيف استحوالت تلك الشخصيات إلى كلمات لا نجد لها إلا في المعجيات والقواميس . أمامفاهيمها فلم نعد نرى لها أثراً في الناس على كثرة من يرددون هذه الكلمات ويتشددون بها كلما اقتضاهم أمر من الأمور الدنيا ، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازي ، ولعلك تعرف أسباب تطوره ولعلك تجد شبهاً بين تطوره في ذلك العهد وتطوره في العهد الحاضر ، ولعلك أيضاً تلحس الفارق بين التطور في كلتا الحالتين الماضية والحاضرة ، وكيف استطاعت العبقرية الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور فتسهم في بناء الحضارة من الناحية الفنية ومن الناحية الفقهية . وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفني في الشعر والغناء والموسيقى وابتكارهم في هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً خالداً ما زال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور ، كما تركوا لنا تراثاً فقهياً خالداً ، لم تستطع المدنية الحاضرة أن تصل إليه في أسس تشريعاتها . وكيف احتفظ لنا تاريخ تلك الفترة بنماذج

آدمية بلغت في الخلائق الإنسانية المثالية حداً لم يطاولهم فيه أحد حتى اليوم ، مما يجعلنا نؤمن بأن النبوغ الحجازي نبوغ قوى متفتح إذا انسد أمامه طريق لا يئأس ولا يقنط ، ولا يخنق ولا يتواكل ، وإنما هو يسلك سبلاً أخرى ، ويثبت أنه قادر على التفوق في كل الأعمال التي تزاولها الإنسانية الذكية النابهة ويبرز فيها بروزاً كبيراً يسجله له التاريخ ويحتفظ له به احتفاظ المقدّر المعجب المستفيد .

وسوف تجد في حياة عمر بن أبي ربيعة وحياة أسرته ما يحيي فيك الأمل ، ويشيع فيك البهجة ، ويطرد عنك اليأس . لتعلم أن الحياة لا تضيق إلا في وجه العاجز ، ولا تتعسر إلا على البليد . ولن تستطيع الحياة أن تمحو من صفحاتها إلا الأغبياء ، أما الأذكياء النابهون فليس في ميسورها أن تغض نظرها عنهم ، ولو تجاهلهم كثير من أشباه الأحياء .

لم يجد عمر مجالا للسياسة والإدارة في دولة الأمويين يصول فيه ويحول ، كما وجد أبوه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهد أبي بكر وعمر وعثمان إمارة يقضى عمره فيها . كما أنه لم يجد مجالا له في دولة الزيريين كما وجد ابنه وأخوه سبيلا إلى تولي الإمارة على عهد عبد الله بن الزبير ، فأنشأ للفن دولة وجلس بمفرده على عرشها . فكانت أخلا من آثار الدولتين الأموية والزيرية ، والناس إذ يذكرون ابنه وأخاه اللذين توليا الإمارة ، فإنما يذكرونهما عرضا في الحديث عن عمر بن أبي ربيعة .

ذلك هو شاعرنا الحجازي الخالد . الذي ما زال الناس يعنون به ويتحدثون عنه ، ويؤلفون المجلدات الضخمة عن حياته ، وعن شعره ، وعن فنه .

وسوف لا نكتفي الأقلام بما كتب عن عمر . وسوف تتحرك أقلام وأقلام للكتابة عنه ، وإني إذ أقدم لك في محاضرتي هذه نبذة عن عصر عمر ، وتاريخ عمر ، وشعر عمر ، فإنني إنما أقدم لك حديثاً موجزاً عن تاريخ الوطن الأول للعروبة والإسلام في فترة من فتراته مشاركة مني للباحثين في جلاء بعض النواحي التي قد تكون غامضة علينا بعض الشيء .

ولعلك واجد في محاضرتي شيئاً لم تجده فيما قرأته عن عمر في كل ما كتب عنه .
ولعل كاتباً حجازياً آخر يقوم بجلاء بعض الغوامض التاريخية في بلادنا ، فإن
الكاتب الحجازي والأديب الحجازي قد يرعى أن يحلو من تاريخ بلاده وموطنه
ما قد يعجز عنه غيره لأنه ابن البيئة الحجازية وربيبها وأهل مكة أدرى بشعابها^(١) .

وفي تاريخنا حياة عظيمة رائعة مطوبة تدعونا بالحاح إلى بعثها ونشرها ، فحبذا
اتجاه أقلام الكتاب وجهود الباحثين إليها والاستجابة لدعوتها . فإن ربنا من ذلك
سيكون وفيراً جداً لأن بلادنا غنية بأمجادها ، غنية برجالها . كما هي غنية
بكنوزها وخيراتها .

وقد رأينا فائدة النباش عن كنوز البترول وكيف طفرت بلادنا طفرة اقتصادية
مما جعل لها دويماً في أركان الأرض ، ولفت إليها أنظار المستغلين وعشاق الأرباح .
فلماذا لا تنبش عن تراثنا الفكري والأدبي والروحي ، وهو أكرم وأعز وأثمن من
ذلك في وزن الحياة الصحيحة والأحياء الخالدين .

وسيكون ربح الإنسانية الروحي أعظم من ربحها المادي .
وما أخالك يا ابن العروبة عامة ويا ابن الحجاز خاصة إلا مؤمناً بنفسك وبموطنك
وبتاريخك وموروثاتك إيمانك بالله ؟

(١) وقد أثبت هذا ما كشف عنه الأستاذ عمر رفيع من الغوامض التاريخية والمحلية في مؤلفه
(في ربوع عسبر) وصحيح كثيراً من لأخطاء التي وقع فيها كثير من الذين كتبوا عن عسير لأنهم
لم يكونوا من أبناء البيئة . وكذلك ما كشفه لنا الأستاذ أحمد سباعي في كتابه (تاريخ مكة)
وما جلاه لنا الأستاذ محمد بن بليهد في سفره (صحيح الأخبار) وحقق هؤلاء المثل « أهل مكة
أدرى بشعابها » .

عمر بن أبي ربيعة (*)

عصر عمر ومجتمعه :

يقتضيني الحديث عن عمر بن أبي ربيعة أن ألم إلمامة موجزة بعصره ومجتمعه
لنعرف الأسباب التي كونت منه زعيما للشعر الغنائي في الأدب العربي .

فإن الحجاز — الذي هو موطن الشاعر — بعد أن قام بأداء الرسالة التي وكل
الله إلى أبنائه نشرها على العالم واطمأن إلى أن العقيدة الإسلامية قد استقرت
في قلوب الملايين من أبناء الأمة العربية ، وغيرها من أبناء الأمم الأخرى .

وأن دعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد احتلت رقعة كبيرة من الأرض
وتجاوبت أصدائها في أركان المعمورة . وأخذت الأموال والسبايا تتقاطر على مدن
الحجاز حتى أصبح الناس في حالة من الغنى واليسار لم يكن بها عهد من قبل .

بدأت ظلال المادية القائمة تغزو الاشراقات الروحية التي بعثها الإسلام في القلوب
والعقول . وأخذ سحر المثالية في الأقوال والأعمال يفقد تأثيره القوى الأخاذ . وجنح
الناس ، أو جنحت بهم المطامع والشهوات إلى الاستزادة من الثراء ، والاستكثار
من الدور والقصور ، والضياع والبساتين ، والعبيد والإماء ، وما يتبع ذلك من كل
ما تستدعيه حياة المنافسة والمكاثرة . وما تستلزمه مظاهر الأبهة والترف . والنتيجة
الطبيعية لهذا كله احتدام الصراع بين الأسر الكبيرة ، والعصبيات القوية . فتنبش
الأحقاد القديمة ، وتوغر الصدور وتثار النفوس . وقد كان . ودخلت البلاد في سلسلة
من الثورات والحروب الداخلية كانت تليجتها أن قتل عثمان بن عفان واغتيال علي
ابن أبي طالب رضي الله عنهما .

(*) هذه المحاضرة أُلقيت في ندوة رابطة الأدب الحديث بالقاهرة عام ١٣٧٤ هـ .

وباغتيال على كرم الله وجهه انتهى أمر الشعوب في حكم نفسها ، وبدأ أمر الأسر في حكم الشعوب ، وبعد أن كان المسلمون يحاربون الكسروية والقيصرية ، أصبحوا يحاربون بعضهم بعضاً عليها^(١) .

وانتقلت ميادين الصراع في سبيل الفكرة والمثل الأعلى من ميدانها ، إلى ميادين الصراع في سبيل المغنم والسلطان . ومن طبيعة الصراع في هذا السبيل أن تستخدم كل الوسائل في سبيل الغلبة والنصر . دون مراعاة لخلق أو دين . وإذا تمت الغلبة لأحد الفريقين استخدم الفريق الغالب كل الوسائل التي انتصر بها على خصمه في تثبيت نفوذه . وتدعيم سلطانه . ليضمن البقاء له ولأسرته أطول مدة ممكنة . ويصبح ذلك هو الغاية التي يجب أن تعمل له الدولة . فتتفق الأموال بغير حساب — لا على مرافق الدولة — بل على الأنصار والمشايين . وتسند الوظائف الكبيرة إلى الأقرباء والموالين — دون ما نظر إلى جدارة أو كفاءة — إلا ما قد يحىء عرضاً غير مقصود . وتنجم من هذا التصرف في المجتمعات التي يسودها هذا النظام إلى جانب الطبقة الحاكمة ، طبقة الأشراف ، أو ما كنا نسميها إلى أمد قريب بالطبقة الراقية ، طبقة الفارغين ، الذين يثرون على حساب المجتمع ويتضخم ثراؤهم على حساب الحكوميين .

وقد نجمت هذه الناجمة في المجتمعات الإسلامية في عصر شاعرنا . ولكنها كانت في الحجاز أكثر وضوحاً ، وأبعد شهرة ، ذلك لأن الحجاز كان القلعة التي يكمن فيها الخطر على الأمويين الذين تمت لهم الغلبة . إذ أن الحجاز يتألف من أبناء المهاجرين والأنصار ، ومن البيوتات القرشية العريقة في الشرف والسؤدد في الجاهلية

(١) وما زال أمر المسلمين كذلك منذ اغتيال على إلى أن جاء البعث الجديد في حياة الأمة الإسلامية على يد أحرار مصر الذين حطموا ذلك النظام البغيض — نظام الملكية — الذي يجعل من الشعوب أثاثاً يورث يرثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد . فخلصوا حياة العرب في أضخم حصن لهم من نير ثقيل كانوا يرزحون تحته طيلة هذه الأجيال . وهذا حدث كبير في حياة العرب العربي يجب أن يخلد ويعطى له ما هو به جدير من التقدير والذين قاموا به مأثرة خالدة لا يمكن أن يجاهلها أو ينكرها منتصف وزن الأمور بميزاتها الصحيح .

والإسلام . ونظرة هذا المجتمع إلى الأسرة الأموية تختلف عن نظرة بقية المجتمعات .
فهي نظرة فيها الكثير من الازدراء والتهوين . لأن بعض أسر هذا المجتمع تفضل
الأسرة الأموية في كثير من الأمور . ولهذا الفضل ، يتشيع لهم كثير من البلاد
والأمصار التي دانت لحكم بني أمية .

فلا بدع إذا وجدنا الأمويين ينتهجون للحجاز منهجا سياسيا خاصا يتغاير مع
سياستهم في حكم غيره من الأمصار ، وهذا المنهج يتلخص في مادتين أساسيتين :

الأولى : البطش الذريع .

الثانية : الإغداق الوفير .

ونسوق حادثتين كنموذج لهذا المنهج السياسي الذي كان يساس به الحجاز .
الحادثة الأولى : لما ثار أهل المدينة المنورة على يزيد بن معاوية — بعد مأساة
الحسين بن علي رضي الله عنهما — بعث يزيد حملة كبيرة أخذت الثورة وأباح
قائد الحملة (مسرف بن عقبة) المدينة لجنده ثلاثة أيام بقتلون وينهبون ويفتكون .
ثم أبي على من بقى من أهل المدينة إلا أن يبائعوه على أن يكونوا خولا وعبيدا
ليزيد أو يقتلوا . فبايع من بايع ، وقتل من قتل وهرب من هرب . وهذا منتهى
ما عرف من البطش والقسوة في تاريخ العرب والمسلمين في ذلك العهد .

الحادثة الثانية : قابل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يزيداً . وكان عبد الله
هذا عميد البيت الهاشمي في المدينة . وكان أجود أجواد العرب وله من المكانة في
نفوس الناس ما يجعل يزيد يحسب له ألف حساب ، فقال له : كم عطاؤك يا أبا هاشم ؟
فقال عبد الله : ألف ألف . فقال له يزيد : قد ضاعفناها لك . فقال عبد الله : فذاك
أبي ، وما قلتها لأحد قبلك . فقال يزيد : قد ضاعفنا لك العطاء ثانية لهذه . فعاد
عبد الله من مقابلة يزيد بأربعة ملايين . وهذا — كما ترون أيها السادة —
منتهى الإغداق .

وإن لهذه السياسة تأثيراً عميقاً في تكييف الأخلاق والأفكار ، وتوجيه المواهب والملكات ، وقد رأينا تأثير هذه السياسة في أخلاق الحجازيين وتفكيرهم ، ومواهبهم وملكاتهم .

رأينا الحجاز ينفض يديه من السياسة . ولم يعد يعنى بها كما كان في عهد الخلفاء الراشدين . ومن نازعته نفسه للسياسة ، فليس أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يرحل عن الحجاز ، كما فعل الحسين بن علي عليهما السلام ، وإما أن يترصّد في حذر وكتمان حتى تواتيه الفرصة — كما فعل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

وقد يعجب البعض لموجة الغناء والمرح التي غرق فيها الحجاز في ذلك العصر . ولكن نظرة عابرة على الأحداث التي توالى على الحجاز ، وموجات الأحران المتلاحقة التي أغرقت في خضمها الحجازيين ، تزيل كل عجب واستغراب . فهم إن أغرقوا أنفسهم في الحياة اللاهية ، فإنما هم يريدون أن يسروا عن أنفسهم الحزينة ، وأن يزيلوا من سمائمهم السحاب القائمة التي أمطرتهم بالفجائع والآلام . ففي فترة لا تزيد عن ربع قرن ، كانوا لا يتنهون من مأساة حتى يصابوا بفاجعة . فقد اغتيل أبو الحرية والأحرار عمر بن الخطاب ، وما كاد أثر الفجيعة في عمر يزول حتى صرع الخليفة الصالح عثمان بن عفان في ثورة جامحة . وتلا ذلك وقعة الجمل وحصدت هذه الوقعة صفوة كبيرة من شباب الحجاز وشيوخه . وعقب هذه الوقعة نشبت وقعة صفين ، فقضت أو كادت تقضى على البقية الباقية من أعلام الحجاز النابيين فيه من أهل السابقة والفضل ، ثم اغتيل رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ولم يمض طويل وقت حتى مات ابنه الحسن في المدينة في ظروف غامضة . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حمص وأحاطت موته نفس الظروف التي أحاطت بموت الحسن . ولم يكد الحجاز يكفكف دموعه على البررة من أبنائه حتى فوجئء بالمأساة التي اهتز لها العالم الإسلامي بأسره أسى وحزناً واستنكاراً ، تلك هي مأساة الحسين بن علي في كربلاء . وقد كان وقع هذه المأساة في الحجاز أشد وأوجع ،

ثم حدثت مذبحة المدينة على يد مسرف بن عقبة . ثم قتل مصعب بن الزبير في العراق . وعقبه مصرع أخيه عبد الله وانهيار دولته التي أقامها لمناوءة الأمويين . فهذه سلسلة من الكوارث أدمت قلوب الحجازيين وشملتهم بموجة من الحزن المميت . فلا بدع إذا وجدناهم بعد ذلك يغرقون أنفسهم في موجة مضادة كلها لهو ومرح ، وغناء وشعر . وزادهم إمعاناً في هذه الحياة ، مساعدة الأمويين لهم على ذلك بالبذل والعطاء ليصرفوهم عن التطلع إلى حقهم المنصوب . فنشأ بينهم الغزلون من الرجال والغزلات من النساء . وراجت سوق الظرف والظرفاء ، في جانب . وفي جانب آخر نبغ فريق من الزهاد والنساك والفقهاء الذين انصرفوا للعبادة . وجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والعناية بأحكام الفقه الإسلامي . وأخذ الحجاز يعيش العيشة التي أرادت لها السياسة الأموية وأحداثها . ونحن لا يهمننا في حديثنا هذا إلا مجتمع الطبقة الفارغة في الحجاز لأن شاعرنا كان منها .

لقد كانت هذه الطبقة مضافاً إليها الطبقة الحاكمة ، تعيش عيشة مترفة ناعمة ممتعة . وأول حاكم مسلم اتجه في حياته إلى هذا اللون من المعيشة وشجع عليه معاوية بن أبي سفيان ، فلقد روي عنه أنه قدم إلى الحجاز حاجاً فدخل المدينة في موكب فخم ضخم — وكان أهل الحجاز لا عهد لهم برؤية الخلفاء إلا متقشفين مخشوشين . فلما رأوا معاوية على هذا الوضع وفي هذا الموكب بهتوا . فقد كان من جملة ما في موكبه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل الأرجوان يمتطيها جواريه وهن في أكل زينة عليهن الجلابيب والمعصرات . ففتن الناس بذلك المنظر . وأنكره المتخرجون . ولكن المترفين والموسرين ، أخذوا يقلدونه .

والناس — كما يقولون — على دين ملوكهم . فأقبلوا على تشييد القصور في حواضر الحجاز ، وفي مشارف الأودية الجميلة ، كوادى العقيق في المدينة ، ووادي قرن في الطائف . وفي أباطح مكة وشعابها . وأحاطوها بأغراس النخيل وأعراش الكروم . وأشجار الورد والقاغية ومختلف الزهور والرياحين . ونشطوا في حفر الآبار

والعيون ، وابتنوا الأحواض والبرك في العرصات وملئوها بالماء النقي الصافي لتلطيف
الحر والسموم . وأثثوا الدور والقصور بالآثاث الفاخر والرياش الثمين . وزينوها
بمختلف التحف والدمى المجلوبة من بلاد فارس والروم ومصر والشام والهند .
واستوردوا عطور القرنفل والورد والكافور والمسك والعنبر والند من كل مكان .
وتغالوا في الملبوس . وتأثقوا في الهندام وحشدوا قصورهم بالجوارى الحسان من هنديات
وروميات وفارسيات وحبشيات واعتنوا بتأديبهن وتثقيفهن ، فعلموهن القراءة
والكتابة . والعزف على الآلات الموسيقية ، وكان لديهم منها : الرق والعود والناي
والطنبور . وشغفوا بالغناء وكرموا المغنين والمغنيات وجعلوا لهم مكاناً مرموقاً بينهم .
وكان الرجال والنساء من هذه الطبقة يركبون الخيل المسومة ، والبغال المطهمة ،
والنجائب الفارعة المزينة ، ويخرجون إلى المتنزهات في مواكب خلابة يمشى عن
أيامهم وشمائلهم ومن أمامهم وخلفهم الخدم والعبيد متمنطقين بالخناجر المموهة
بالذهب متوشحين بالسيوف المرصعة بالجواهر . واستحدثت نساء هذه الطبقة
(موديلات جديدة) في القمصان والجلايب والخمر ، وكن يسدن على وجوههن
رقائق الحرير الشفاف لتمنع عنهن الغبار ، وتشف عن وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا .
كما يقول عمر ، واستحدثت سكيئة ابنة الحسين تصفيفة جميلة لشعرها ، قلدها
النساء . كما قلدها بعض الشبان المائعين . وسميت هذه التصفيفة بالجمة السكيئية .
واخترعن العصائب الموشاة بالقصب المحلاة باليواقيت واللؤلؤ . ولسن الأقراط
والخواتم والعقود ذات الأثمان الخيالية ، وتغالت هذه الطبقة في المهور . فقد أمر
مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة بألف ألف . وقد أنكر الشعب هذا السرف
البالغ من طبقة الحاكمين ، لأن هذا السرف لا يمكن أن يكون إلا على حساب
الشعب المسكين . وقد كان مصعب بن الزبير هذا أميراً على بعض البلاد من قبل
أخيه عبد الله فإذا بشاعر شعبي يقول أبياتاً منها :

أبلغ أمير المؤمنين مقالة من ناصح لك لا يريد خداعا
مهر الفتاة بألف ألف كامل وتبيت سادات الجنود جياعا

وقد عزل عبد الله أخاه مصعباً لما بلغه قول الشاعر . ولكن ماذا يفيد عزل أمير عن إمارته ؟ بعد أن استمرت هذه الطبقة حياتها على هذا الوضع ومنها الحكام والأمراء وأولياء العهود من بني أمية ودولتهم مازالت قابضة على زمام الحكم . وأبناؤها يحميون على هذه الوتيرة . وقد غلب باطلهم كل حق وكل قائم بحق . وسارت عجلة الترف والسرف في طريقها تطحن كل شيء يقف أمامها حتى بلغت القمة . ثم طحنهم العجلة حتى انهارت دولتهم تحت سيرها العنيف بين عشية وضحاها .

ولكن كانت هذه الحياة المترفة محوطة سياج قوى لا يصل إليه إلا كل من كان ذا حسب وسب وعصبية قوية وثراء ضخم ، فكان الشعراء يتحامونها . والشاعر الذي لا يتحاماها لا يستطيع تصويرها في شعره لأنه لا يحسها ولا يستمتع بما فيها من فنون وفنون . وكذلك لا يجرأ شاعر شعبي أن يتغزل بنساء هذه الطبقة المعتدة بأحسابها وأنسابها المعتزة بما لها وتراثها .

ومن ذا الذي يجرأ على التغزل بعائشة بنت طلحة . وسكينة بنت الحسين . وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف . والثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر . وفاطمة بنت عبد الملك ابن مروان وغيرهن من خرائد البيوتات ؟

لا يستطيع نصيب العبد ، ولا يستطيع كثير وجميل البدويان أن يرفعا أعينهما إليهن ، وكذلك لا يستطيع جرير ، ولا الفرزدق ، ولا الأحوص . أن يتغزلوا بالقرشيات . لأنهم ليسوا من قریش ، ومن ذلك نعرف أن هذه الطبقة المميزة المشغوفة بالغناء كان ينقصها شاعر منها . . . لقد كانت في حاجة إلى شاعر يكون حسبه من حسبها ، ونسبه من نسبها ، وثراؤه يضاهي ثراءها ، وذوقه لا يشذ عن ذوقها . وهي لا تسيع بحال من الأحوال أن يتغنى مطربوها ومطرباتها بأعجاد غيرهم ، ومناقب سواهم . ولا يسمحون لشاعر أجنبي عنهم أن يتهجم على حرمهم ويتغزل بنسائهم .

لكن عمر بن أبي ربيعة منهم في الصميم ، وله من الثروة واليسار ما يجعله يحيا حياتهم ويحس بإحساسهم ، ويلهو لهوهم ويجاريهم في كل مضمار .
وقد آن لي أن أتحدث عنه ولأبدأ بالحديث عن عشيرة عمر وأسرته :

عشيرة عمر وأسرته :

فعشيرة عمر بنو مخزوم ، وبنو مخزوم ثالث بطن من بطون قريش البطاح التي تأتي في المقدمة ، وهم : هاشم وأمّية ومخزوم ثم بقية بطون قريش ، وأسرته بنو المغيرة ابن مخزوم . وهم أبرز أبناء هذه البطن من قريش في الجاهلية والإسلام ، فهو عمر ابن عبد الله بن حذيفة بن المغيرة بن مخزوم ، وكان أبوه عبد الله علما من أعلام قريش في الجاهلية ، وكانت قريش تسميه العدل لأن قريشاً كانت تكسوا الكعبة سنة ، ويكسوها عبد الله بمفرده سنة ، فسمته العدل لأنه عدلها ، وهذا يدل على الثراء العريض والكرم البالغ كما يدل على عاطفة دينية عميقة .

وكان لعبد الله عدد كبير من العبيد ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أراد غزو ثقيف قيل له استعن بعبيد عبد الله فأبى . . هذا شرفه في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجند . . ومخاليقها ، وهي ولاية كبيرة من ولايات اليمن الثلاث : صنعاء ومخاليقها ، وحضرموت ومخاليقها ، والجند ومخاليقها . وأرجح أن الجند هي المنطقة المسماة بعسير الآن ، وربما شملت ما يقال له قبل اليوم المخلاف السلياني ، وقد لبث عبد الله في ولاية هذه المنطقة مدة الرسول وخلافة أبي بكر وخلافة عمر حتى أوائل خلافة عثمان ابن عفان .

وكان أبو عبد الله جد عمر اسمه حذيفة وكنيته أبو ربيعة وإليه نسب عمر . وكان أبو ربيعة هذا شجاعا مقداما ، وتسميه قريش ذا الرمحين ، لأنه قاتل في حرب الفجار برمحين ، وذلك كما يدل على الشجاعة يدل على البراعة في فن القتال . وكان

المغيرة أبو حذيفة عظيماً في قريش بلغ من الشرف والسؤدد ما جعلهم يسمونه رب قريش . وقد قال الشاعر في هذا النسب الضخم :

ألا الله قوم ولدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد منا ف مدره الخصم ..
وذو الرمحين أشباك على القوة والحزم
فهذان يذودان وذاعن كذب يرمى
أسود تزدهى الأقرا ن منا عون للهمم
وهم يوم عكاظ منعوا الناس من الهزم
وهم من ولدوا أشبوا بسر الحسب الضخم
فإن أحلف وبيت الله لم أحلف على إثم
لما من إخوة تبني قصور الشام والردم
بأزكى من بني ري طلة أو أوزن في الحلم ..

وربطة هذه أم بني المغيرة وهي من بني سهم وبنو سهم بطن من قريش . هذا هو النسب الضخم لعمر بن أبي ربيعة وتلك هي مآثر آبائه في الجاهلية . أما في الإسلام فيكفي بني مخزوم أن يكون منهم بطل الإسلام خالد بن الوليد . وأن يكون أب شاعرنا من الذين أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمارة جزء كبير من جزيرة العرب . وبالجملة فإن شاعرنا من أسرة وعشيرة في الذروة من قريش إذا جاءت قريش في جاهليتها بالأحساب وجاءت في الإسلام بالأعمال . . وكان لعمر أخ لأب اسمه الحارث بن عبد الله وكان رجلاً رزينا تقياً ولاء عبد الله بن الزبير إمارة البصرة وكان لعمر ابن يقال له جوان تولى إمارة تبالة باليمن في دولة ابن الزبير أيضاً . ومن العجيب أن يكون شاعرنا ابن أمير وأخ أمير وأب أمير وهو لم يؤمر . ولا أظن إلا أن الإمارة عرضت عليه . ولكن نفسه الشاعرة ، أنفت من ذلك لما في الإمارة من قيود وهو شاعر لا يحب غير التحرر والانطلاق .

مولد عمر :

يقال إن عمر ولد في الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فسمى باسمه وكنى بكنيته ولا أظنه إلا مولودا في السنة التي قتل فيها عمر . لأن أباه كان أميراً على الجند وأمه كانت من البلد التي فيها إمارته . إذ لا يعقل أن يغتال عمر وفي الليلة نفسها يولد عمر فيسمى باسمه إلا إذا كان أبو عمر موجوداً في المدينة ليلة مقتل عمر . ولا أظن أن عبد الله يشق على زوجته وهي في أشهرها الأخيرة من الحمل ويأتي بها إلى المدينة إذا كانت أعمال إمارته فرضت عليه السفر إلى المدينة لمقابلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقد عرف عن رجال قريش حنوهم الشديد على النساء . لذلك أرجح أنه ولد في موطن أمه بالجند وولد في السنة التي اغتيل فيها عمر لا في الليلة نفسها وقد سماه أبوه عمر باسم الخليفة . لما لهذا الخليفة في قلوب الناس من حب واحترام . ولا يبعد أنه بقي باليمن في كنف أمه وأبيه حتى مات أبوه في أوائل خلافة عثمان . فنقل الطفل إلى المدينة بعد وفاة أبيه لينشأ في وطنه و بين أهله وعشيرته . وكان القيم عليه أخاه لأبيه الحارث . فتقفه بكل ما يتتقف به أبناء الأشراف في ذلك الوقت ققرأ القرآن وحفظ الحديث ورواه ولكن علماء الحديث ضعفوا روايته . لأنه لا يتفق مع ما اشترطوه في رواية الحديث من التحرز والاحتياط ، وتفقه في الدين وتعلم الكتابة ورمى النبال والضرب بالسيف ، والمصارعة وركوب الخيل .

وقرأ شعر الجاهلية ، وألم بأشعار معاصريه من الشعراء ، ولقد تفتحت شاعريته وهو ما يزال فتى يافعا ، وكان أخوه الحارث يكره الشعر ، وبخاصة ما يختص بالغزل . فنهى أخاه عمر عن قوله ، ولكنه لم ينته ، فلما رأى إصراره على قول الشعر ذهب به إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وقال له : إن أخى قال شعراً فاسمعه منه ، فإن كان حسناً تركته يقوله ، وإن كان غير ذلك صرفته عنه ، فلما سمعه عبد الله بن عباس قال للحارث : إن بقي هذا ليخرجن الخبآت من خدورهن . وقد حقق المستقبل ما تنبأ به ابن عباس وأخرج عمر بشعره الخبآت من خدورهن وان لتشجيع ابن عباس

فضلاً كبيراً في تنمية شاعريته وإشعال نبوغه ، ولو تركت هذه الشاعرية لأخيه الحارث لوأدها وهي في مهدها .

وكان ابن عباس يسمع شعر عمر في حلقة درسه ، تحت ظل الكعبة في المسجد الحرام ، وإذا تغيب سأل عنه بقوله : ماذا فعل المغيرة بعدنا ؟ وكان ابن عباس يحفظ شعر عمر وينافح عنه ، وقد أنكر ذلك عليه نافع ابن الأزرق بقوله : يا ابن عباس إننا نضرب إليك آباط الإبل من أقاصي الأرض لنسألك عن الحلال والحرام ، ويأتيك مترف من مترفي قریش فتستمع إلى شعره وتعرض عنا ، وهو ينشدك قوله :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيخسر

فقال له ابن عباس : لم يقل فيخسر ، وإنما قال فيخسر . قال نافع : أو حفظت البيت ؟ قال ابن عباس : بل حفظت القصيدة ، وإذا شئت أن أقرأها لك قرأتها ، قال نافع : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة كما سمعها من عمر .

هذا التشجيع الكبير الذي لقيه عمر من هذا الصحابي الجليل حبر الأمة ، وابن عم الرسول يجب أن نذكره بالتمجيد والإعجاب ، لأنه يرينا صورة من النفوس السمحة التي كان يتحلى بها فقهاء ذلك العصر وعلمائهم ، ولعل الذين يضيقون بالشعر والشعراء من العلماء المتزمطين اليوم يتأسون بمن هم أفضل منهم وأحرص على أخلاق المسلمين . ومن العجيب أن نرى بين علماء المسلمين اليوم من يحرم الشعر بإسم الإسلام ، أو لعل الذين أخذوا الإسلام عن الهوامش والحواشي ، أعلم بالإسلام وروحه ممن أخذوا الإسلام عن رسول الإسلام ؟ من يدري ؟

صحب عمر :

بلغ عمر سن الشباب والفتوة بالمدينة المنورة ، فوجد المدينة تزخر من حوله بما قدمنا من حياة المجتمع الراقى ، وما هو فيه من ترف ونعمة ، وما عليه أبناء الأشراف من أبهة وفخفة . وكان أبرز البارزين في هذا المجتمع الناعم المترف أجود أجواد

العرب وعميد البيت الهاشمي في المدينة إذ ذاك عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وكان رجلاً مهيباً مرموقاً ، وكان بيته كعبة الوافدين والأضياف من كافة أنحاء البلاد الإسلامية ، وكانت تقام في منزله أكبر حفلات الطرب يجتمع فيها كبار المغنين والمغنيات . . . ويجتمع فيها الناس من جميع الطبقات للسمع .

وبجانب هذه الدار دار أخرى هي دار حفيد الخليفة الأول عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق الشهير بابن عتيق ، وكان رجل ظرف ودعابة ، وكان عمر فتى مرموقاً لما لأسرته من مكان لا ينكر في مثل هذا المجتمع ، ولا يعسر على مثله أن يصاحب هذين الرجلين الكبيرين ، فصحبهما وتوطدت بينهما أسباب الصداقة حتى صاروا لا يكادون يفترون عن بعض . وكان عمر يجمع إلى جمال شاعريته جمال هندامه وجمال خلقه وخلقه ، وتألق هذا الثلاث الجليل في المجتمع الراقى تألقاً باهراً ، فابن جعفر عرف بسخائه وكرمه ، وابن أبي عتيق عرف بظرفه ودعابته ، وعرف عمر بشعره ودمائه أخلاقه . وكان هذا الثلاث يقوم بإقامة الحفلات الغنائية ، ويعقد مجالس الفكاهة والمرح ويجعلها مجالس عامة لا يرد عنها أحد ، فاجتمع عليهم الشباب حتى صار حضورهم الحفلات الغنائية شغلهم الشاغل . وقد أنكر بعض الشيوخ الأميين من قريش على ابنه شغفه بمجالس الغناء ، فقال له : أتمنعني عن مجلس يجلس فيه عبد الله بن جعفر ؟ فذهب هذا الرجل إلى عبد الله وقال له : يا أبا هاشم لقد اتخذك فتياننا حجة في السماع فإذا نهيناهم عنه قالوا اتفهونا عما يسمعه عبد الله ابن جعفر ؟ فقال له عبد الله : ولقد اتخذك فتياننا حجة إذا حملناهم على التعليم ، فيقولون لنا : أتأمرونا بشيء ، لم بتعلمه فلان .

فاستحيا ذلك الشيخ من عبد الله وذهب . وهكذا أيها السادة إذا ملك الأميون أمراً يحرمون ما لم يحرمه الله ويحللون ما حرمه الله . ويتخذون من أميتهم ديناً يفرضونه على الناس .

ما علينا ، فقد تأثر شاعرنا بأخلاق صاحبه عبد الله بن جعفر وبأخلاق ابن

أبي عتيق . ونسوق حكايتين نستشف منهما ما كان يمكن في نفسية كل منهما من كرم أصيل وسماحة طبيعية وظرف غير متكلف : الأولى عن عبد الله بن جعفر ، والثانية عن ابن أبي عتيق .

جاء شاعر إلى عبد الله بن جعفر وأنشده هذه الأبيات :

رأيت أبا جعفر في المنام كساني من الخبز دراعه
شكوت إلى صاحبي أمرها فقال ستؤتي بها الساعه
سيكسوكها الماجد الجعفري ومن كفه - الدهر - نقاعه
ومن قال : للوجود لا تعدني فقال : لك السمع والطاعه

فقال عبد الله لغلامه : ادفع له دراعتي الخبز ، وقال للشاعر : كيف لم ترجبني المنسوجة بالذهب هذه الجبة التي اشتريتها بثلاثمائة دينار؟ فقال له الشاعر : دعني أغني اغفائة أخرى فاعلمني أراها في المنام . فضحك عبد الله وقال : يا غلام ادفع له جبتي الوشي .

أما ابن أبي عتيق . فقد رأى خدشا في حلق ابن عائشة المطرب المشهور في عصره فقال له : من فعل بك هذا؟ قال : فلان . فمضى ابن أبي عتيق ونزع ثيابه وجلس للرجل على بابه حتى خرج فأخذ بتلابيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له : يا حفيد خليفة رسول الله مالك تضربني؟ ماذا صنعت؟ وهو لا يجيبه ثم خلاه وقال لمن حضر : إن هذا يريد أن يكسر مزماراً من مزامير داود . أنه خدش ابن عائشة في حاقه . هذا الظرف وذلك السخاء في هذين الرجلين . وذلك الوقار والصلاح اللذين يتصف بهما أخوه الحارث ابن أبي ربيعة أثر في أخلاق شاعرنا تأثيراً كبيراً فترفع عن الدنيا كما ترفعوا . ولم يتسفل إلى ما يتسفل إليه غيره من الشعراء . فليس في عمر شراصة العرجي . ولا تسفلات الأحوص . ولا أقذاع جرير . ولا اندفاعات الفرزدق .

ولم تكن شاعريته بمدح الملوك والأمراء وأولياء العهود من بني أمية على شدة لفتهم إلى استماع مدحهم من عمر . وقد قال له الوليد بن عبد الملك ما يمنعك من مدحنا ؟ فقال له عمر : إني لا أمدح الرجال . وحقاً أن عمر لم يمدح إلا النساء . . ولكن مع هذا فقد رويت له أبيات يمدح فيها صديقه عبد الله بن جعفر . حينما ابتعد عمر عن مجالسه في بعض رحلاته التجارية . وقد رأى حمامة تنوح بقربه فأنارت أشجانه وقال قصيدة فقد أكثرها منها :

على أنها ناحت ولم تذر عبرة ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وبرزخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامه فيح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى فتضحى عصا التسيار وهي طريق
ولا أظن إلا أن لعمر مدائح في أصحابه وأصدقائه ومرثيات لمن مات منهم قبله
وبخاصة في صديقه هذا عبد الله بن جعفر . ويغلب على ظني أنه طواها بيده . لئلا تكون حجة عليه عند بني أمية الذين قال لهم : إني لا أمدح الرجال وهو يعرف من بني أمية ما نعرفه نحن عنهم . كانوا لا يحنقهم شيء مثل ما تحنقهم المدائح في الهاشميين وعبد الله بن جعفر عميد الهاشميين . فخشي عمر أن يفسد عليه بنو أمية حياته المترفة الناعمة إذا هم رأوا شيئاً من مدائحه في غيرهم فطواها عن الأعين والأسماع فاندثرت فيما اندثر من شعره .

ومن أصحاب عمر : صاحب ثالث لزمه في مكة . ذلك هو عميد المطربين في مكة عبيد بن سريج ، وهو مولى بعض الأسر القرشية ، وكان وهو في المدينة فتى يافعاً مثل عمر يحضر حفلات الغناء التي كانت تقام في منزل عبد الله بن جعفر وكان عبد الله بن جعفر يعطف عليه ويواسيه . ولعله كان يستشف من نفسه روحاً فنية لم تفتح بعد فتعرف عليه عمر واصطحبها . فلما انتقل عمر إلى مكة وانتقل إليها ابن سريج كان مطرب عمر المفضل . وقد بلغ ابن سريج من جودة الغناء وحسن الأداء وصفاء الصوت مبلغاً عظيماً حتى افتتن به الناس افتتانا عجيباً . وكانوا يفضلون الانصراف إليه لسماعه على الانصراف إلى أعمالهم . حتى أن عطاء بن رباح عالم مكة

وأعظم زهادها . ذهب إليه وقال له : يافتان ألا تكف عما أنت فيه ؟ فقال له ابن سريج : سألتك بحق . من تبعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبحق رسول الله عليك إلا ما سمعت مني . فإن سمعت منكراً أمرتني بالإمساك عما أنا عليه وأنا أقسم لئن أمرتني بعد استماعك مني بالإمساك لأفعلن ذلك . فطمع فيه عطاء وقال له : قل . فاندفع ابن سريج يغنى .

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غیضن من عبراتهن وقلن لی ماذا لقيت من الهوى ولقينا
فلما سمعه عطاء اضطرب اضطراباً شديداً . وحلف أن لا يكلم أحداً بقية يومه
إلا بهذا الشر و صار إلى مكانه بالمسجد الحرام فكان كل من يأتيه سائلاً عن الحلال
والحرام لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : (ماذا لقيت من الهوى
ولقينا) حتى صلى المغرب . ولم يعاود لوم ابن سريج أو معارضته هذا ما كان
عليه أسلافنا من تقدير للفن وتأثر به . وقد وصلنا إلى عصر قست فيه القلوب حتى
صارت كالحجارة ورأينا رجالاً يحرمون الغناء تحت ستار الدين . وحاشا سماحة الإسلام .
ودين الفطرة . أن يحارب ما فطرت عليه النفوس . أو يمنع ما فيه تهذيب لها .

انتقال عمر إلى مكة :

وبينما كانت المدينة المنورة تنعم بالترف والنعيم . وتلهو لهوها الممتع الشائق مات
معاوية ونودي بابنه يزيد خليفة على المسلمين وهذه بدعة منكورة لم يعرفها المسلمون
في عهد خلفائهم الراشدين وأهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار . ومن ذوى
العصبية القوية . ومن أهل العرفان والعلم بالفقہ الإسلامی ، وهم يعرفون أن كل
بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . فليس بدعا عليهم إن لم يقرؤا هذا الوضع وأبوا أن
يورثوا كما تورث الدور والقصور والمواشى والأنعام . وكيف لا يأبون ذلك وهم الذين
حطموا القيصرية والكسروية في فارس والروم وخلصوا الشعوب من نيرها الثقيل
المرهق . فنار الحسين بن عليّ على هذا الوضع وكانت شيعته بالعراق فذهب إليها

وفي العراق حدثت تلك المأساة الرهيبة . وثارَت المدينة المنورة بزعامة عبد الله بن حنظلة الغسيل وجاء مسرف بن عقبة بحماته وأنزل بالمدينة تلك الكارثة المشهورة . مما جعل الناس يتسللون إلى مكة حيث عبد الله بن الزبير يربض فيها ويعد لو ثبتته على الأمويين عدتها . وكان الحارث أخ شاعرنا من نوار المدينة . ولكنه استطاع أن يفلت هو وعائلته من قبضة مسرف . ويتسلل إلى مكة . وبطبيعة الحال كان عمر معه . واستطاع ابن سريج أيضاً أن يذهب إلى مكة . مع عمر . وهذه الكارثة هي التي ألهمت في ابن سريج فنه ورفعت من قدره إذ كان يصعد إلى جبل أبي قيس وينوح على قتلى الثورة بمثل هذا البيت :

يا عين جودي بالدموع السفاح وابكى على قتلى قريش البطاح
وقول سكينه بنت الحسين :

يا أرض ويحك أكرمي أمواتي فلقد ظفرت بسادتي وُحّاتي
فلفت نظر الناس إليه بصوته وحسن ترجيعه . واستغل عمر بن ربيعة ذلك فكان ينظم المقطوعة من الشعر ويعطيها لابن سريج فيأخذها ثم يعد عمر مجلساً حافلاً للثناء فيتغنى ابن سريج بأبيات عمر .

وفي مكة ظهر عمر ظهوره الساطع . فقد كان مترفاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني الترف . يعني بهيئته وهندامه فيلبس الفاخر من الثياب ويسدل لفته بعد أن يخضبها بالعنبر والمسك ويعني بركائبه فيجملها برحائل الديباج الموشاة بالقصب . ويعني بمجلسه فيصف المراتب الوثيرة . ويفرشه بالبسط الفارسية . وكان لا يثير في نفسه الشعر إلا منظر النساء الجميلات الأنقيات المترفات . فهن مصدر وحيه . ومبعث إلهامه . فكان يترصدهن في كل مكان ويتنسم أخبارهن . ويحتفل لمقابلتهن احتفالاً عظيماً . وكان يحيط نفسه بحاشية من صحابه وخدمه يغدق عليها إغداقاً وفيراً من ماله . وكان ماله لا يضيق بذلك فقد ورث ثروة طائلة من أبيه . ولم يلهه الشعر والغزل ومجالس اللهو عن تنمية الثروة الموروثة . فكانت له رحلات تجارية أكثرها إلى اليمن . وربما ذهب إلى العراق في رحلة مزدوجة للتجارة والحب .

وقد قصت كتب الأدب عن تفننه في إبراز الصورة التي يجلبها لمظهره وموكبه الشيء الكثير من ذلك قول صاحب الأغاني « حج عمر بن أبي ربيعة على نجيب مخضوب (بالحناء) مشهر الرجل بقراب مذهب . ومعه عبيد بن سريج على بعة شقراء . وغلام عمر جناد يقود فرساً له أدم أغر محجلاً في عنقه طوق من ذهب . وكان اسم الفرس كوكب » .

وقال أيضاً : خرج عمر ومعه ابن سريج على نجيين راحلتاهما ملبستان بالديباج وقد خضب النجيبان (بالحناء) ولبس عمر حلة وابن سريج حلة . هاتان الحكايتان تعطيانا فكرة أو صورة لما كانت عليه مواكب عمر التي كان يخرج فيها إلى الحج أو إلى المنزهات فيهر الناس بمظهر فذ يدل على النعمة واليسار . والظرف ، والترف . وكان عمر يختار لمجاسه عند منصرف الناس من الحج كثيراً يشرف على الحاج في مفترق الطرق بأعلى مكة . فتبسط له البسط وتحيط به الحاشية ويقف على رأسه غلامه جناد . ويجلس عن يمينه ابن سريج ضارباً على رقه أو على عوده ويرفع صوته بالغناء في مقطوعة من شعر عمر . فيجتمع الحجاج تحت الكتيب ويستمعون إلى الشعر والغناء ولا ينصرفون إلى بلادهم إلا وهم يرددون شعر عمر وألحان ابن سريج ويتحدثون عن ذلك المجلس الرائع الفتان .

أما قبل الحج فكان يخرج بموكبه الجميل الذي تقدم وصفه إلى ذات عرق فتضرب له المضارب الفخمة التي تلفت إليها الأنظار ويبقى هناك حتى يمر الركب العراقي فيرصد من فيه من حسناوات .

وينتقل إلى مر ليستقبل الركب المدني . ثم ينتقل إلى القديد أو الكديد ليستقبل أهل الشام . ثم ينتقل إلى يلم حيث يستقبل ركب أهل اليمن . وهو في كل ذلك لا يتعقب إلا النساء الجميلات المترفات فيتحدث إليهن . ويسمعن شعره القديم ويتزود بنظرة تبعث فيه شعراً جديداً . ثم يضرب بينه وبينهن المواعيد للمحادثة والسمر . وقد شغف به النساء الغزلات ، ونقصد بالغزلات اللواتي يحببن سماع الغزل

كما شغف بهن ، فكن يتفقدنه في المواقيت وإذا لم يرين مضاربه الأنيقة ، بحثن عنه كما يبحث عنهن . ويتحيلن في مقابلته بشتى الحيل . ولا بدع في ذلك « فالغواني يغرن الثناء » وعمر يمدحهن ويثنى عليهن في شعره ، وشعره أحسن إعلان عن جمالهن ، فيجعل منهن حديثاً للركبان وأغنيات للمطربين . والمرأة لا تحب شيئاً حبها إلاشادة بجمالها وأحسن العلم عندها علمها بمدى تأثيرها في قلوب الرجال . وبخاصة في قلوب الشعراء فهم عند الغانيات الناس ، ورحم الله شوقي حيث يقول : « أتم الناس أيها الشعراء » .

وإذا رأينا النساء يتهاقن على عمر ويحرصن على محادثته . فلا نراهن يردن من ذلك إلا اشتهار الاسم وبعد الصيت . ونستدل على ذلك بحكاية حكاه الأصفهاني في أغانيه واستدل بها الأستاذ العقاد في كتابه (شاعر الغزل) . على ما أذهب إليه . وملخص الحكاية : أن عمر بن ربيعة رأى امرأة عراقية فأعجبه جمالها فمشى خلفها حتى عرف منزلها . ثم زارها وحادثها وناشدها وناشدته فلما أعجب بها خطبها فقالت : إن هذا لا يصلح هنا ولكن إن جئتني إلى بلدى وخطبتني إلى أهلى تزوجتك فارتحل معها إلى العراق ثم تنجزها وعدها ، فأعلمته : « أنها كانت متزوجة بابن عم لها وقد مات بعد أن خلف منها أولاداً وترك لها ثروة وأوصى بهم وبثروتهم إليها ما لم تزوج . وهى تخاف إن تزوجته فراق أبنائها وذهاب النعمة عنها » فتركها وعاد إلى مكة . ويقول الأستاذ العقاد تعقيماً على هذه الحكاية : « فهذه الحسناء العراقية لم ترد حباً ولا زواجاً ولا متعة حديث . ولكنها أرادت أن يشتهر بين الناس أنها أعجبت شاعر الغزل في الحجاز حتى ترك وطنه وتبعها وتمنى زواجها فلم تجبه . وهذا الذى صنعه الحسناء العراقية تصنعه الحسان الحجازيات اللاتى يأتين السكوت عنهن إذا كان معنى السكوت أنهن أقل جمالا وفتنة ممن نظم فيهن الغزل وجرى بوصفهن الحديث فيتصدىبن ولا يتجاوزن الملهيات أو هذه المناوشة » ، هذا شأن الحسنات

اللائي كن يتعرضن لعمر ليتغزل بهن . أما شأنه معهن فقد أجمع الرواة ولم يغيب عنهن أن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف ويحوم ولا يرد .

لقد عرف عمر لنفسه مكاتها فلم يتبدل في شعره . ولم تر فحشاً في الكثرة الكثيرة مما نظم . والشئ القليل الذي فيه الفحش لاقى فيه من حسناواته نقداً لازعاً . لأن حسناواته لا يردن له التبذل أو لا يردن الإساءة لسمعتن وإذا أقررنه على التبذل والفحش لحقت بهن الإساءة . روى الأغاني ، والخلاصة مما روى : أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان حجت . فلما أتمت مناسكها دعت إليها فلما حضر عندها قالت له : أأنت عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال : أنا عمر . قالت أنت الفاضح للحرائر حيث تقول :

قالت : وعيش أخى وحرمة والدى لأنهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلت أن يمينها لم تخرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
فلثمت فها آخذاً بقرونها شرب الزيف ببرد ماء الحشرج
أخرج عنى . وقد أخرج من مجلسها إخراجاً وهذا شديد مؤلم على عمر لمسكاته من قریش بصرف النظر عن مجده الشعرى الضخم ثم استدعته مرة ثانية ، فلما حضر عندها قالت يا فضاح الحرائر بقولك :

وناهدة الشدين قلت لها اتكى على الرمل من جبانة لم توسد
فقلت : على اسم الله أمرك طاعة وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فلما دنا الإصباح قالت : فضحتى فقم غير مطرود وإن شئت فازدد
ثم قالت : أخرج عنى يا فضاح الحرائر . وأخرج . ولكنها في هذه المرة لم تتركه يذهب بل ردتته وقالت : لولا وشك الرحيل وخوف الفوت ومحبتى لناجاتك والاستكثار من محادثتك لأقصينك فجلس يتحدث معها ولكن بعد أن أعطته درساً قاسياً ، يجعله طول حياته ، لا ينزل عن المستوى الشعرى الذى يريده له نساء هذه

الطبقة . ومما يدل على أن عمر لم تمتد غايته إلى أكثر من المحادثة والمؤانسة . وأنه لا يريد بحال من الأحوال أن يتأذى منه حسناواته . زواجه من كلثم بنت سعد الخزومية . ولزواجه بها قصة : فقد كان يهواها وكانت شديدة التمتع عليه . ومن شلتها عليه أن أرسل لها جارية من جواريه فضربتها وحلقتها . فأرسل لها أخرى ففعلت بها ما فعلت بالأولى فتحامها جواريه ورسله . ولكنه لم يعدم حيلة فبعث إليها بمولاة له كانت لبقة في تصرفها . فتوددت إلى خادماتها حتى أصبح ترددها لم يثر رية أو شك في نفس كلثم . وما زالت تتلطف بكلثم حتى أنست إليها وصارت تسمع منها حديثها فلما أمنت غضبها قالت لها : لى عليك عهد الله أن أطلعك على شيء فإن كان منك إلى ما أحبه وإلا فلا يلحقني منك مكروه ، فعاهدتها على ذلك ، فأعطتها قصيدة كان عمر نظمها لها . يقول فيها :

من عاشق صب يسر الهوى قد شفه الوجد إلى كلثم
رأتك عيني فدعاني الهوى إليك للحين ، ولم أعلم
قتلتنا يا حبذا أتمو... في غير ما جرم ولا مآثم
والله قد أنزل في وحيه مبيناً في آيه الحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ولم بقدها ، نفسه يظلم
وأنت ناري فتلافي دمي ثم اجعليه نعمة تنعمي
وحكمي عدلاً يكن بيننا أو أنت فيما بيننا فاحكمي

فلما قرأتها قالت : إنه خداع ملق وليس إلى ما شكاه من أصل . قالت : يا مولاتي فما عليك في امتحانه ؟ قالت : أذنت له . وزينت نفسها ومجلسها وجلست له من وراء ستر . فلما دخل واطمأن به الجلوس . قالت له : أخبرني عنك يا فاسق أأست القائل ؟ .

هلا استحييت فترحمي صبا صديان لم تدعى له قلبا
جشم الزيارة في مودتك وأراد أن لا ترهقي ذنباً

ورجا مصالحكم فردكموا . . سلما ، وكنت تريفه حربا
لا تجعل أحداً عليك إذا أحببته وهويته ربا
وصل الحبيب إذا سعدت به واطو الزيارة دونه غيبا
فلذاك أحسن من مواظبة أيت تزيدك عنده قربا
لا بل يملك عند عودته وبقول : هاه وطالما لبا

قال عمر : جعلت فداك ، إن القاب إذا هوى علق اللسان بما يهوى . فعدلت
عن تقريره ، وأنست لحديثه فكث عندها شهراً ، فلما أراد الخروج استأذنها .
فقلت : بعد أن فضحتني . لا تخرج إلا بعد أن تتزوجني . فتزوجها وأنجب منها
ابنه جوان .

هذه الحكاية تدلنا على أن عمر لم يكن ذئبا من ذئاب الإنسانية الذين يغدرون
بالنساء ثم يدعونهن صرعى الغدر والتغدير ، وإنما هو رجل يعرف تبعات الرجولة
فيحتملها في قوة ورضاء .

لقد بلغت في الحديث عن عمر مبلغا أظنه كافيا لإعطاء صورة واضحة عن عصر
عمر ومجتمعه وأسرته ونشأته ونفسيته . وبقى أن أتحدث عن شعر عمر ، الذي هو
مرآة نفسه .

شعر عمر :

لقد كان شعر عمر مذكرات يومية يسجل فيها حياته الخاصة التي كان يحياها ،
والحياة التي كان عمر يحياها بعيدة كل البعد عن الأحداث السياسية الكبرى التي
كانت تدور حوله فلم يتأثر بها ، ولم تتأثر به . وإنما هو رجل فنان مترف موكل
بجمال الوجه يتبعه ، فلا يهتم من هذه الحياة إلا جمال النساء ، وما يأتي اطارا لذلك
من جمال الموكب ، وجمال الملبس ، وجمال المجلس ، وجمال الهندام ، وجمال الشعر
وجمال الغناء ، فإن تعرضت الأحداث لشيء من ذلك انفعلت نفس عمر وإلا فلا

انفعال ولا شعر . فمن ذلك ، لما بلغ عمر أن مصعب بن الزبير قتل عمرة بنت النعمان الأنصارية . انفعلت نفس عمر واهتزت لهذا العمل الذى يعده عمر من أفظع الكبائر:

إن من أعظم الكبائر عندى قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

فصرع هذه المرأة حرك نفس عمر للشعر ، أما مصرع آلاف الرجال الذين كانوا يتساقطون كورق الأشجار بسيف البغي ، فلا يحرك عمر ولا يهز شاعريته . لأن ذلك غير داخل فيما يعنى به عمر من أمور الحياة . وأنا أخشى أن ألوم عمر على ذلك لأنه تمنى لمن يلومه أن يلاقى عشر ما كان يلاقيه من عذاب فى حبه للنساء . ولا أريد أن يشمت بى عمر فى قبره إذا حقق الله أمنيته فهو يقول :

يا ليت من لا منا فى الحب مر به مما نلاقى - وإن لم نحصه - العشر
حتى يذوق كما ذقنا فيمنعه مما يلد حدث النفس والسهر
وبقية هذين البيتين قصة شعرية من قصصه الممتع اللذيذ فهو يقول :

دست إلى رسولا لا تكن فرقا واحذر - وقيت - وأمر الحازم الحذر
إنى سمعت رجالا من ذوى رحى هموا العدو بظهر الغيب قد نذروا
أن يقتلوك - وفاك القتل قادره والله جارك فيما أجمع النفر
السر يكتمه الاثنان بينهما وكل سر عدا الاثنان ينتشر
والمرء إن هو لم يرقب بصبونه لمح العيون بسوء الظن يشهر

وهذه قصة أخرى من أقاصيص عمر وما أكثر أقاصيصه الشاعرية الممتعة :

لقد حج عمر ونزل إلى مكة : وبينما هو بين الصفا والمروة يسعى لإتمام مناسكه رأى امرأة جميلة أعجبه جمالها فتبعها فنظرت إليه ولكنها أغضت عنه حتى أتمت سعيها

فرأته ما زال ينظر إليها . فقالت لوصيفتها — وكأنها تضرب له موعداً — أرائح عمر مساء أم سيبكر بالسفر ؟ الله يحفظه إن أقام أو رحل ، ولم يجد عمر فرصة في زحمة السعي للمحادثة معها فتبعها حتى عرف منزلها فلما أجنه الليل صحب سيفه وتدفثر بعباءته وذهب حتى وصل إلى منزلها فوجد أمامه أحراساً فاستدار إلى خلف المنزل ووقف في فناءه . وكان القمر يرسل أشعته عليه والقمر عند العشاق نمام . فوقف في حذر ويقظة . وإذا به يراها تنضو مجاسدها استعداداً للنوم . ولاحظ منها التفاتة إلى ناحيته فرأته فعرفته فلطمت وجهها لهذه المفاجأة ونادت وصيفتها وقالت لها ما بال عمر يخاطر بنفسه ، ويأتى في مثل هذه الساعة من الليل ؟ ألا يرى الأحراس ؟ أيريد فضيحتي ؟ أم يريد تحقيق ما قاله الناس عنى من أنى أحب عمر ؟ هلا أرسل إلى رسولا يعلمنى بزيارته حتى أعد للأمر عدته ؟ هلا صبر حتى يغيب القمر ؟ ثم دنت منه ثائرة فطمأنها قائلاً إن أحداً لم يره . فاطمأن قلبها وأدخلته وجلس معها إلى الصباح وخرج وقامت مع جواريتها يزلن أثر خطوه من فوق الرمل بخمرهن الفخمة الغالية . هذه المغامرة سجلها لنا عمر في شعره فقال :

وساقى موقف بالروتين لها	والشوق يحدثه للعاشق الفكر
وقولها لفتاة غير فاحشة	أرائح ممسياً أم باكر عمر . ؟
الله جار له ما أقام بنا	وفى الرحيل إذا ما ضمه السفر . .
فجئت أمشى ولم ينف الأولى سمروا	وصاحبى هندوانى له أنر . . .
فلم يرعها . وقد نضت مجاسدها	إلا سواداً وراء البيت يستتر
فلطمت وجهها ، واستنبتت معها	بيضاء آنسة من شأنها الخفر . .
ما باله حين يأت أخت منزلنا	وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
لشقوة من شقائى أخت علقنا	وشوم جدى ، وحين ساقه القدر
قالت : أردت بذاً عمداً فضيحتنا	وقطع حبلى ، وتحقيق الذى ذكروا
هلا دست رسولا منك يعلمنى	ولم تعجل إلى أن يسقط القمر

قللت داع دعا قلبي فأرقه ولا يتابعني فيكم فيزدجر . .
فبت أسقى عتيق الخمر خالطه قرنفل فوق رقراق له أشر
وعنبر الهند والكافور خالطه شهد مشار ، ومسك خالص ذفر
حتى إذا الليل ولي قالتا زمراً قوماً بعيشكما قد نور السحر
فقت أمشي وقامت وهي فائرة كشارب الخمر بطى مشيه السكر
يسحب خلى ذبول الخبز آونة وناعم العصب كيلا يعرف الأثر

إنه مشهد سينمائي فيه كل ما في السينما من أضواء وظلال وحوار . وأمثال هذه المشاهد في شعر عمر كثيرة بل إن شعر عمر كله مشاهد غرامية وهذا اللون من الشعر يعد خروجاً عن المألوف الذي كان متبعاً عند الشعراء . فلقد كانوا أكثر ما يعنون بالنسيب كمقدمة للمديح . أو كانوا يعنون بالنسيب ليصفوا ما يلاقونه من صد وهجران . أو ما يحسونه من ألم وحرمان . ولكن عمر خرج عن كل ذلك بتصوير المواقف الغرامية . وتسجيل ما يحدث له من مغامرات يومية . وسرد ما قال لحسنائاته وما قلن له . فنحن إذا قرأنا شعر عمر . وجدنا أنفسنا أمام مشاهد سينمائية وحوار ممتع بلغة سلسة سهلة مهيبة . وفي مقطوعات قصيرة غير مملّة وأظن عمر بن أبي ربيعة كان متفاهماً مع مدرسة أبولو في الاتجاه الشعري ولا أظن . إلا أن عمر قد نال إعجاب الأستاذ السحرتي كناقده . فإذا قيل لماذا خرج عمر عن مألوف الشعراء . ولم يخرج غيره من شعراء زمانه ؟ فإننا نجد للإجابة على ذلك كثيراً من الأسباب تضافرت على إبراز شعر عمر بهذه الصورة . منها أن أسرة عمر أسرة تجارية والأسر التجارية كثيرة الاختلاط بالناس . وهذا الاختلاط يقتضيها أن تكون رقيقة الطبع دمثة الأخلاق تختار من أساليب الكلام الأسلوب السهل المفهوم عند كل من يسمعه . وتبتعد ما أمكنها عن الفخامة والضحامة .

وكانت تجارة أسرته في العطور والحرير . والأحجار الكريمة . والأثواب الناعمة . وأكثر الناس شراء هذه الأشياء ذوو الثروة واليسار . وكانت جدته لأبيه

تبيع العطر وزبائنها من النساء . فانطبعت في مخيلته منذ الطفولة هذه المرائى البراقة
مرأى النساء الجميلات اللواتى يفوح العطر من أكمامهن ومرأى الأثواب الناعمة
والأحجار المتألثة . ودرج لسانه منذ الصغر على ما يسمعه من كلام ناعم
وعبارات مهذبة .

ومن الأسباب أيضا تطور المجتمع الذى نشأ فيه ذلك التطور الذى قدم
وصفه . ومن الأسباب أيضا أنه كان غنيا موسرا لا يهمله شيء من أمر اللقمة
والكسوة والمسكن . فإن ذلك متوفر له بصورة لم تتوفر لشاعر مثله .

ومن الأسباب أنه كان ينظم الشعر لا ليلفى في مجالس الخلفاء الذين لا يرضيهم
الشاعر إلا إذا كان جزلا في أسلوبه فخما في كلماته وعباراته . وإنما كان يقول الشعر
ليسهل فهمه على حسناواته من جهة ومن جهة أخرى ليهل تلحينه على المطربين
والمطربات وساعده مزاجه الشعرى واستجاباته النفسية . إلى هذا اللون من الشعر
فكان مبرزا فيه . . فهو لا يعنى بالسياسة أو أن السياسة لا تعنيه في قليل أو كثير .
ونفسه لا تميل إلى الملاحاة والتهاجى ، وليس هو بحاجة إلى التفاخر القبلى كما يفعل
غيره من الشعراء فقد اعترف الناس لقبيلته بالسبق في كل شيء . وأسرته غنية
بأبجاده ومناقبها . وأخذانه وخلاناه لا يريدون منه إلا شعراً يكمل لهم متعتهم
ويزيد لهم في مباهج حياتهم . كل هذه الأسباب تهيأت لعمر فجعلت منه صاحب
مدرسة خاصة في الشعر العربى . وإمام طريقة لا يزال أتباعه من شعراء الشعر
الغنائى . يسرون على سنته ومنهاجه فيها . حتى الآن .

وقد أحس شعراء زمانه بأنهم لا يحسنون ما يحسنه عمر . وأنه جاء في شعره
بنعمة شعرية جديدة على أسماعهم فقد سمع الفرزدق عمر ينشد قوله :

فقمى لى يخليننا فترقرت مدامع عينها وظلت تدفق
وقالت : أما ترحمنى ، لا تدعننى لدى غزل جم الصبابة يخرق
فقلن : اسكتى عنا فلست مطاعة وخلق منا قاعلى بك أرفق . . .

فقال له الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس لا تحسن والله الشعراء
أن يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية . هذا الذى أرادته الشعراء
فأخطأته . وبكت على الديار . وما كان للفرزدق أن يقول مثل هذا القول لولا أنه
سمع نعمة شعرية لم يسبق للفرزدق أن سمع مثلها من غير عمر .

ولما أنشد عمر جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة قوله :

فسألت وأستأست خيفة أن يرى عدو مقامى ، أو كاشح فعلى
فقلت وأرخت جانب الستر : إنما معى تكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت : ما بى لهم من ترقب . . . ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طبيبات بحالة ذى التبل . .
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا نطف ساعة فى طيب ليل وفى سهل
فقلت : فلا تلبثن ، قلن : تحدثى أتيناك ، وانسبن انسياب مها الرمل
فقمى وقد أفهمن ذا اللب إنما يأتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

قال له جميل : « هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سبجيس الليالى ،
والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد » .

وإذا حدثنا عمر فى شعره عن النساء . فإنما هو ينقل لنا أحاديثا لا تصدر إلا
من النساء . ومثل هذه الأحاديث يقولها النساء فى كل مكان وفى كل زمان .
ولكن براءة عمر تبدو فى الدقة التى ينقل بها لنا تلك الأحاديث فمن ذلك قوله :
فلوت رأسها ضراراً وقالت : لا وعيشى ولو رأيتك متا
حين آثرت بالودة غيرى وتناسيت وصلنا وملاتنا . . .
قد وجدناك إذ خبرت ملولا طرفا لم تكن كما كنت قلنا
وقوله :

فالت على رقبة يوما لجارتها ما تأمرين فإب القلب قد تبلا
وهل لى اليوم من أخت مواسية منكن أشكو إليها بعض ما فعلا

فراجعتها حصان غير فاحشة برجع قول ، ولب لم يكن خطلا
لا تذكرى حبه حتى أراجعه انى سأ كيفكه ، إن لم أمت عجلا
فاقتى حياءك فى ستر وفى كرم فلست أول أتى خادنت رجلا

وحينما سئل حماد الراوية عن شعر عمر قال : « ذاك الفستق المقشر . وما كان
لحماد أن يقول هذا القول لولا أنه وجد لشعر عمر طعما لذيد المذاق لم يجده فى شعر غيره
على كثرة ماذاق حماد من طعوم الشعر .

أقوال النقاد القدامى :

لقد قتن النقاد القدامى بعمر افتتاناً شديداً ، فلم يهمله ناقد من معاصريه . وكل
من ألف عن الشعر والشعراء لابد وأن يفرد الصفحات الطوال لعمر واشعر عمر .
وإننى أذكر لحضراتكم بعض ما قالوه فيه . فمن ذلك ما قاله يعقوب بن إسحاق ،
ونقله عنه صاحب الأغاني ، قال يعقوب : كانت العرب تقرقرش بالتقدم فى كل شيء
إلا فى الشعر فإنها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرت لها الشعراء
ولم تنازعها شيئاً .

وقال نصيب الشاعر لما سئل عن شعر عمر : « أن عمر أوصفنا لربات الحجال » .
وقال جرير : وهو من أشد المنكرين على عمر شاعريته . فقد كان إذا سمع شعر عمر
يقول هذا شعر تهاى إذا نجد وجد البرد فلما سمع قوله :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر
قليلاً على ظهر المطية ظله سوى ما نقى عنه الرداء الحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحدايق أخضر . .
ووال كفاهها كل شيء يههما فليست لشيء آخر الليل تسهر

قال جرير : مازال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر . وجرير كما يبدو لنا
لا يحب شعر الأغاني فلذلك تحامل على عمر فلما سمع من عمر قصيدته هذه ورأى

إشراق الديباجة ومتانة الأداء عرف أن عمر لا يعجزه هذا اللون من الشعر فأقر له بالإجادة والتبريز .

وسمع أحد شيوخ الأدب من قریش قول عمر :

ياليتنى قد أجزت الحبل نحوكمو حبل المعرف أو جاوزت ذا عشر
إن الثواء بأرض لا أراك بها فاستيقنيه ثواء حق ذى كدر
وما مللت ولكن زاد حبكمو وما ذكرتك إلا ظلت كالسدر ..
ولا جذلت بشيء كان بعدكمو ولا منحت سواك الحب من بشر
أذرى الدموع كذى سقم يخامره وما يخامرني سقم سوى الذكر
كم قد ذكرتك لو أجدى تذكركم يا أشبه الناس كل الناس بالقمر

فقال هذا الشيخ القرشى : « إن لشعر عمر وقعاً في القلب ، ومخالطة للنفس ، ليسا لغيره ، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً » .

وقد قيل الشيء الكثير عن شعر عمر قديماً مما لا تستوفيه مثل هذه المحاضرة .

أقوال النقاد المحدثين :

قد فتن النقاد القدامى بشعر عمر فقالوا عنه الشيء الكثير .

أما النقاد المحدثون فلم يكونوا مفتنين بعمر كزملائهم القدامى فحسب بل هم أشد افتتاناً به . وأكثر تقديراً لشعره . وإني أنقل بعض ما قاله بعض أعلام الأدب والنقد المعاصرين في شعر عمر . يقول الدكتور طه حسين في كتابه (حديث الأربعاء) عند كلامه عن عمر :

« فعمر إذن زعيم الغزليين الأمويين جميعاً لا نستثنى منهم أحداً . ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة . بلى نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزليين في الأدب العربي على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن » . هذا قول عميد الأدب العربي في العصر الحديث

عن شاعرنا الحجازي الخالد عمر بن أبي ربيعة ، وقارنه الدكتور طه بالأديب الأفرنسي « بيرلوتي » .

ويقول الأستاذ محمود عباس العقاد : في كتابه (شاعر الغزل) عن عمر بن أبي ربيعة : « وقد كان عمر إمام مدرسة اللاهين غير مدافع » ، والأستاذ العقاد كما تعرفونه كثير الضن بالألقاب ، ولكنه لم يضمن على شاعرنا بلقب الإمامة .
أما الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة . فقد امتلأت نفسه إعجابا بعمر وبشعر عمر . فأفرغ هذا الامتلاء في كلمتين جامعتين فقال عنه في كتابه (أعلام الأدب العربي) : « إنه عبقرى عظيم » .

ويقول الأستاذ جبرائيل جبور في كتابه الضخم ، (عمر بن أبي ربيعة) .
« ولم يكن عمر شاعر قریش فحسب بل كان شاعر الحجاز في عصره في الغزل ، حمل لواء الشعر الغزلي ونشره . ينشد الحب والجمال . وسار وراءه الشعراء الغزلون يقتفون آثاره ، فكان زعيمهم وكان إمامهم ، وكانت مدرسة غزلية خلقت في الأدب العربي أثراً قيماً ، وحفظت للأجيال تراثاً عظيماً » .

وشبهه الدكتور أحمد ضيف « بالفريد دي موسيه » الأديب الإفرنسي . وقال عنه الدكتور شوقي ضيف ، في كتابه « الشعر الغنائي » في الأمصار الإسلامية : « عمر أكبر شاعر غنائي أنتجته حركة الغناء في مكة » .

هذه بعض أقوال أعلام الأدب في عصرنا الحديث عن عمر بن أبي ربيعة . ولم يشذ أحد منهم عن اعتبار عمر صاحب مدرسة ، وإمام طريقة مبتكرة في الأدب العربي . وما زال الشعراء الغنائيون يحذون حذوه ويتلمسون طريقته ويسيروا على نهجه . . فهو خالد بخلود الأدب .

خلود عمر :

ولم يكن عمر بن أبي ربيعة خالداً بشعره القصصى والغزلى فحسب ، وإنما خلد
بحكمه الروائع التى ما زالت تدور على ألسننا عند مناسباتها . فمن أبياته الحية بحياة
الناس قوله :

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليدا
وقوله :

إن كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن
وقوله :

تشط غداً دار جيراننا . . وللدار بعد غد أبعد
وقوله :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى
وقوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
وقوله :

السر يكتمه الاثنان بينهما وكل سر عدا الاثنين ينتشر
وقوله .

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول
وقوله :

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلتقى العاشقينا
وغير هذه الأبيات مما جرى مجرى الأمثال . بذلك وبقيره مما شرحناه خلد عمر
فى الأدب العربى وفى الحياة العربية .

عمر الإنسان الفنان :

لقد تكلمت عن عمر الفتى المترف ، وعن عمر الشاعر الغزل . بقى على أن أتحدث إليكم أيها السادة عن عمر الإنسان لئرى .
هذا الرجل الذى ورث الغنى والشرف عن آبائه وأجداده . وشغل نفسه بالنساء والشعر . هل كان إنساناً يشعر بالآلام الإنسانية ؟ أو كان مغلق القلب والضمير ، لا يهتم إلا أمر نفسه ؟ وهى ناحية مهمة لا بد لدارس عمر أن يعرف عنها شيئاً . ولا أريد أن أطيل عليكم فى ذلك ، وإنما أريد أن أثقل إليكم حكاية نستشف ما كانت تنطوى عليه نفس عمر من خير أو شر . وقبل أن أسرد عليكم حكاية الأغانى أوجه أنظاركم إلى ما حدث لهذا الشاعر فى أواخر عمره ، فقد أجمع الرواة على أن عمر ترك الشعر واصرف عن الغزل والتشبيب بالنساء إلى العبادة ، وآلى على نفسه أن لا يقول الشعر ، وإن قاله فسيعتق عن كل بيت يقوله رقبة .

أما ملخص الحكاية التى يرويها صاحب الأغانى ، فهى : أن عمر بعد أن نسك كان يطوف بالكعبة فوجد فتى عربياً يهامس فتاة فى المطاف . فأنكر عمر عليه هذا الفعل ، وبخاصة إذا كان فى ظل الكعبة ، فقال له الفتى : إنها ابنة عمى ، فقال : ذلك مما يزيدنى إنكاراً عليك ومؤاخذه لك قال : إنى خطبتها من عمى فأبى إلا أن أدفع له أربعائة دينار . وأنا فقير لا أملك هذا المقدار من المال . فإن أردت أن تحسن إلى وإليها . فاذهب إلى عمى لعله أن يستحى منك ، ويزوجينها فذهب عمر إلى أبى الفتاة . ودفع له الأربعائة دينار ولم يبرح مكانه ، حتى رأى الفتاة تزف إلى الفتى .

فلما عاد إلى منزله ، كلمته جاريته فلم يرد عليها ، فقالت : والله لا أراك إلا قائلاً شعراً . فانفجرت نفسه بهذه الأبيات :

تقول وليدتى لما رأتنى طربت ، وكنت قد أقصرت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً وهاج لك الهوى داء دفيناً

وكنـت زعمـت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أـتاك لها رسول فـشاكك ، أم لقيت لها خدينا ؟
فقلت : شكى إلى أخ محب كـبعض زماننا إذ تعلـمينا
فقص على ما يلقى بهند فذكر ، بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أـعرضت عنها نـغير قلـى وكنـت بها ضنينا
أردت بعادها فصدت عنها ولو جن الفؤاد بها جنونا

ثم استدعى تسعة من رقيقه وأعتقهم لكل بيت واحد . وأظنكم متفقين معى
أنها إنسانية مرفرة وهذا يرينا فى عمر حقيقة الإنسان الفنان ، وهى التى دفعته إلى أن
يضم هذه الفتاة إلى ابن عمها فى عش الزوجية ، الذى كانا يتمنيانه . ونستشف من
الآيات التى فالها مبلغ محاربه لنفسه فى اعتزال الشعر واعتزال النساء على شدة ما يلقى
من جهد وعناء فى هذا السبيل . ولكن إرادته القوية أثبت عليه إلا أن يمضى
فى توبته وفى نسكه .

أردت بعادها وصدت عنها ولو جن الفؤاد بها جنونا
وعلى هذا النحو من النـسك والمـشاعر الإنسانية وذكريات الفنان وحنينه
اتتهت حياة عمر .

شجاعة عمر :

أما شجاعة عمر فهى غير منكورة فقد كان يعتمد على سيفه عند المخاطر فهو يقول :

وطرقت الحى مكتما ومعى غضب به أثر
وأخ لم أخش نبوته بخوافى أمرهم خبر

فكما تغنى عمر بحبه وبحسانه تغنى بسيفه . وقد أكثر فى شعره من ذكر سيفه
والتغنى به والاعتماد عليه عند المخاطر .

إباء عمر :

ويكفينا إذا أردنا أن نتحدث عن إباطه أنه لم يترام على أبواب الخلفاء ، ولم يمدحهم ولم يشره إلى نوالهم وإعطاءاتهم الضخمة المغرية . وكبرياؤه على الملوك على شدة رغبته في مديح يسمعون منه ، معروف وقد تقدم أن الوليد بن عبد الملك قال له ما يمنعك من مدحنا ؟ فقال له عمر : إننى لا أمدح الرجال ، دون أن يتهيب مجلس الخليفة ، أو يداهنه في سطوته وسلطانه .

أين مات عمر :

روى الأغاني أن عمر لما مرض مرضه الذى مات فيه جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً ، فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بى ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط ، فقال : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك وقد سليت عنى .

ويقول صاحب الأغاني فيما يرويه قال : أشرف عمر بن أبى ربيعة على أبى قبيس وبنو أخيه معه وهم محرمون ، فقال لبعضهم خذ بيدي ، فأخذ بيده ، فقال : « ورب البنية — يقصد الكعبة — ما قلت لامرأة شيئاً قط لم تقله لى وما كشفت ثوباً عن حرام » . فإذا صحت هاتان الروايتان فيكون موت عمر بمكة لأن أخاه كان يقيم بها ولأن جبل أبى قبيس من جبال مكة ، كما هو معروف لديكم ، وعلى كل ، فإن عمر قد عمر طويلاً ، وقد كثرت الأقوال عن سنه حين مات ، ولكنها فى جملتها لم تنقصه عن السبعين . . ولقد قضى عمر سنى حياته الشعرية كالطائر الغريد الذى لا ينتقل من دوحة إلا ليرف على بانه ، ولا يهبط من فنن إلا ليرتع من جدول ، ولا يغادر غصنا إلا ليحوم على زهرة ، ولا يكاد يستظل فى خيمة حتى يثب إلى غيرها . ومن يقرأ ديوان عمر لا يكاد يفرغ من قراءته إلا وهو ممتلئ صباية ، ونشوة . وربما رأى روح عمر الجميلة وهى تورده معها مسارح أنسه ، وملاعب صبوته فى جنان الطائف ، أو فى شعاب مكة ، أو فى غابات النخيل بالمدينة أو بأودية الحجاز الشهيرة بجبالها حيث الوجوه الصباح ، والعيون الدعج ، والثغور المفلجة ،

والجمال الساحر الأخاذ ، الذى هيمن على مشاعر عمر وأحاسيسه . وأوحى إليه
هذا الشعر الغنائى الخالد .

لقد كان عمر بسمة من بسيمات الأدب العربى يتهلل بها وجه العروبة
بشرا وانطلاقا .

رحم الله عمر وأسبغ على ضريحه شآبيب الرحمة والغفران . وإن الحجاز ليفخر
بشاعره العظيم الذى شارك فى بناء الحضارة العربية بفنه الجميل ، وزود الأدب
العربى بثروة فنية ضخمة ، لها مكانها فى دنيا الشعر والغزل والغناء ! !

دراسة ونقد^(١)

الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجه

عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز الكبير في القرن الأول للهجرة ، أطرف شخصية أدبية في الأدب العربي القديم وحياته وشعره صورة فنية متميزة للحياة العربية في بيئة الحجاز في أزهى عصوره الإسلامية .

وما أجمل الحديث عن عمر وأعذبه ، عمر شاعر الغزل القصصى ، وزعيم مدرسة الغزليين في هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قريش ، والذي عاش لايهجو ولا يمدح وإنما ينظم في فنه الشعرى الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقاً في الشعر العربي ، الذي كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين في القديم والحديث ، اهتماماً لم ينله الكثير من الشعراء الأقدمين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضع عناية الأدباء واهتمام القراء ؛ فإن الحديث عن عمر من شاعر أديب حجازي معاصر يجعل لبحثه أهمية كبيرة فوق أهمية الموضوع نفسه .

ومن ثم فرحت فرحاً كثيراً عند ما دعوت الشاعر الحجازي المجدد الأستاذ إبراهيم هاشم الفلالي ليحاضرنا ، عن عمر في حلقات رابطة الأدب الحديث في القاهرة ، وفرحت أكثر من فرحي الأول عند ما قدم لي الكتاب في آخر مراحل طبعه لأسجل ما وجه إلى بحثه من نقد ليلة إلقائه في ندوة الرابطة الأدبية ، وإني لأضع بحث شاعرنا الفلالي عن شاعر الحجاز الخالد في صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتب وهو أعرف الناس ببيئة الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبنفسية شاعر كان يعيش في هذه البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

(١) من عادة رابطة الأدب الحديث أن تنقد وتعلق على المحاضرات التي تلقى بقاعتها . وهذا تعليق الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجه وكيل الرابطة على هذا البحث .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلالي الشاعر في صدر كتابه يصور منهجه في كتابه للقراء : « ستجد^(١) أيها القارئ العربي المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك في محاضرة أقيمت في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ؛ وسوف تجد في تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازي تطورات المجتمع في فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذي قام بنشر الدعوة الإسلامية ؛ وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازي ، ولعلك تجد شبيهاً بين تطوره في ذلك العهد وتطوره في العهد الحاضر ؛ ولعلك أيضاً تلمس كيف استطاعت العبقريّة الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور ؛ فتسهم في بناء الحضارة من الناحية الفنية ، ومن الناحية الفقهية ، وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنى في الشعر والغناء والموسيقى وابتكارهم في هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً خالداً ما زال عصرنا متأثراً به أثراً غير منكور . »

ويلتفت الفلالي الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر فيقول بعد قليل من كلامه الأول : « ولعلك واجد في محاضرتي شيئاً لم تجده فيما قرأته عن عمر في كل ما كتب عنه^(٢) » .

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه ، والأسباب المختلفة التي أدت لذيوع موجة الغناء والمرح في الحجاز في عصر عمر ، من سياسية واجتماعية وسوى ذلك ، ثم تحدث عن عشيرة عمر وأسرته ، وعن مولده ونشأته ، بيد أن المؤلف يوجز إيجازاً شديداً في حديثه عن نشأة عمر ، وما كان أحراه بأن يطيل كل الإطالة ، وأن يفيدنا الفائدة كلها ، الفائدة التي لا تترقب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلالي في جلده على البحث وفي ذكائه وألمعيته . ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه ، وانتقاله إلى مكة ، ويدفع عن عمر ما يلصقه به الجاهلون من الكتاب ، فيذكر لنا أن عمر « قد عرف لنفسه مكاتبا ، فلم يتبذل في شعره ، ولم يرنا فحشا في الكثرة الكاثرة مما نظم^(٣) » . .

(١) ص ٨ وما بعدها . (٢) ص ١٢ . (٣) ص ٤٨ .

ويتهى المؤلف الشاعر الفلالي من هذه الجوانب كلها ، لبتدىء حديثاً عذبا جميلا عن شعر عمر ، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان « مذكرات يومية يسجل فيها حياته^(١) الخاصة » ، وما أطرف الجوانب الغامضة التي كشف عنها الفلالي في كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراء النقاد فيه القدامى والمحدثين منهم ، ومكانته في الشعر الحجازى ، وحكمه الكثيرة فى شعره . ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات ؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات .

ومع ذلك فإن حديث الفلالي عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الوقت والظروف التي كتب بتأثيرها محضرته .

ولكنى مع هذا الإيجاز الشدبد الذى لجأ إليه المؤلف ، أعنقد أن قارىء هذا الكتاب الصغير الحجم ، يخرج بصورة عن شخصية عمر لا يخرج بها حينما يقرأ كل ما كتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته .

وهناك آراء متعددة فى الكتاب لها سمتها من الطرافة وروعة التصوير .

ومع ذلك فإنى أزعم أن الفلالي لم يفرغ بعد من عمر ، وأن عليه واجبا أدبيا كبيرا لتراثنا الخالد من الأدب العربى ، هو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره ، عندما تسمح له أحواله الأدبية والفكرية بذلك .

إننى أهنىء الفلالي بدراسته ، وأهنىء الأدب العربى بهذا الحديث الشائق الذى استلب أذهاننا بطرافته وروعته وقيمته مـ

محمد عبد المنعم قفاجه

ليتنا نفهم؟؟

لقد عرفت الشعوب طريقها إلى الحياة الصحيحة ، ولم تعد تنطلي عليها حيل المحتالين ، ولا خديعة المخادعين . وأصبحت المظاهر الخلابية التي كان الحاكمون القدامى يحيطون بها أنفسهم . إن لم تكن مثاراً للحقد والكراهية فهي مثار الهزء والسخرية من المحكومين وأصبح نجاح الحاكم يتوقف على سيره في الطريق التي يرسمها الشعب — أي شعب — لحاكميه . واحترام الحاكم أصبح وفقاً على مبلغ قدرته على قطع الطريق الذي يرسمه شعبه .

فإذا ما سار الحاكم في الطريق الذي رسمه شعبه ونجح في السير باستمرار كان من الحكام الخالدين الذين يستحقون التمجيد والإكرام . وإذا تخطى أو سولت له نفسه أن يتخطى ذلك الطريق كان عرضة لغضبة الشعب . وهل وراء غضبة الشعب إلا الطرد والتخويف حتى يصبح مهدداً في حياته . وتضيق عليه الأرض بما رحبت .

* * *

لقد لفظ الشعب الأردني هزاع المجالي من دست الحكم لأنه كان يريد السير في طريق غير الطريق الذي يريده الأردنيون وقد سبق للشعب المصري أن لفظ فاروق وأطاح به وبعرشه وبكل سادن لذلك العرش . لأن فاروق لم يسلك الطريق الذي يريده المصريون .

واستطاع الشعب المراكشي الأعزل أن يرغم فرنسا ذات العدة والعدد على إعادة محمد بن يوسف إلى أريكته . لأن سلطان مراكش سلك الطريق الذي لا يريد شعبه أن يسير فيه . فضحى بسلطانه إرضاء لرغبات الشعب المراكشي الكريم . وبهذه التضحية استطاع محمد بن يوسف أن يبنى قاعدة شعبية متينة يستند عليها في الملاحم والأزمات .

وهكذا أصبحت الشعوب لا تحب من حكامها إلا الحاكم الذى تتمثل فيه
الرغبات الشعبية السامية النابعة من الصميم .

و بقدر تحقيق الحاكم للأمانى والرغبات الشعبية الصاعدة بقدر ما يكون حب
الشعب له . و بقدر استخفافه بها وتقصيره فى الاستجابة لها تكون نفرة الشعب منه .
وبذلك أصبحت الأحرار الغلاظ لا تقى الحاكم من غضبة شعبه مهما أمعن
فى الاستكثار منها . والشئ الوحيد الذى يقيه ويبقى سلطانه القواعد الشعبية التى
يبنىها الحاكم بجهد وعرق وسهر عليها . والقواعد الشعبية المتينة لا تبنى بالتصدق
عليها . ولكن تبنى بإعطائها حقوقها من إنشاء المدارس والمستشفيات والمصانع وتهيئ
العمل وتوفير المأوى والملبس والغذاء . وتحقيق الأمانى السامية التى تهب الأمة حياة
كريمة فاضلة .

وقد فطن الحكام النابهون لهذا وغفل عنه الذين يعيشون بالعقليات التقليدية
العتيقة البالية التى ورثوها من عصور الظلمة والاستبداد .
تلك العصور التى كانت تسمى الحكام سراً وسادة . وتسمى الشعوب
سوقة وعبيداً .

والحكام النابهون الذين يضحون بالمظاهر الخلابة التقليدية إنما هم يزيدون
من تمكين سلطانهم فى النفوس . ويدعون نفوذهم يمتد حتى يصل إلى أعماق الحياة ،
و يصبحون جذوراً راسخة فى تاريخ شعوبهم يمدونها على الدوام بالحركة والنماء .
أما الذين يُصِرُّون على السير بالحكم فى القرن العشرين على ما كان يسير به
الحكام فى القرون المظلمة . اعتماداً على ما يطفو على السطح من زبد وقفايع ، وعلى
مرتزة يزخرفون الأقوال ويمسنون القبيح ويقبحون الحسن . ولا يعلمون عن الأعماق
شيئاً . فإنما هم يعجلون بنهايتهم ويكتبون آخر سطور حياتهم بأيديهم . ولو اقتصر
الأمر على ذلك لكانت المسألة . ولكنهم يتركون شعوبهم عرضة لتجارب قاسية
ومؤلة وأقل ما ينالهم من جراء ذلك أنهم يتخلفون تخلفاً مزمياً قبل أن يلحقوا
بمواكب الأحياء .

والشواهد كثيرة إذا نظرنا إلى حياة الأحياء التي تمتلئ بهم هذه الدنيا الفسيحة فما من شعب تطور حاكمه وتطورت سياستهم مع ما يتفق وسنن الحياة إلا وكان أرقى من غيره وأسبق في كل مرفق من مرافق الحياة . وأكثرتاجاً في كل ما يتجه إليه النشاط الإنساني من نتاج على تنوعه واختلافه .

فالحاكمون الذين لا ينجشون أن تهتز كراسي الحكم من تحتهم يعملون وهم آمنون وبذلك يقفزون بشعوبهم قفزات موفقة في ميادين الحياة الفاضلة والعيش الرغيد الكريم . أما الذين لم يعملوا على إسناد كراسيهم بالقواعد الشعبية المكيئة فهم في شغل شاغل عن ذلك لأنهم متفرغون إلى محاربة المخاوف التي تنتابهم من القلق على مصيرهم . والحياة القلقة لا يمكن أن تكون حياة قوية أو منتجة أو على الأقل سليمة من الأمراض الوبيئة الفتاكة .

فكم كانت الحياة القلقة سبباً للانهييار العصبي في الأفراد ففقدوا بذلك الشعور بكل شيء حتى الشعور بالحياة .

وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الجماعات والشعوب من القاعدة إلى قمة الهرم ذلك لأن الحاكم الذي يستند إلى قاعدة شعبية يلقي عن كاهله كثيراً من الأعباء . ثم هو في العاقبة يظفر بأكاليل الغار . والقاعدة لا تنفس عليه ذلك لأنها تعتبره رمز جهدها وجهادها ، والنجمة اللامعة في صرح أمجادها .

أما الذين لا يهمهم أمر القواعد في شيء . وإن اهتموا بها فلا يهتمون إلا بالأصباغ الظاهرة وإنما يسرعون بتمهيد طريقهم إلى الهاوية .

فياليت . . ياليتنا نفهم . ونعمل بعقلية العصر الذي نعيش فيه ونعنى بالشعوب . فإنها القاعدة التي يستند إليها الحكام الأقوياء النابهون . وبذلك نستطيع أن نطرد من حياتنا أشباح المخاوف التي تحيط بنا . ياليت .

كتب صدرت للمؤلف

رجال الحجاز	طبع طبعين
صبابة الكأس	رباعيا شعرية
الحاني	ديوان شعر
صدى الألمان	» »
عمر بن أبي ربيعة	تحليل لعصوره وشعره ومجتمعه
المرصاد	ثلاثة أجزاء (نقد للأدب الحجازي) طبعت طبعين
أين نحن اليوم؟	محاضرات وأحاديث وبحوث وطنية وإسلامية
مع الشيطان	قصص من الحجاز ومن مصر

كتب صدرت لكتاب من الحجاز

مسرحة الشياطين الخرس للأستاذ عبد الله عبد الجبار

كيف كنا ؟ للأستاذ عبد الله الخطيب

فطرة من يراع للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

في ربوع عسير للأستاذ عمر رفيع

تاريخ مكة الأستاذ أحمد سباعي

من تاريخنا للأستاذ محمد سعيد عاموري

وقريبا

سيصدر كتاب (قصة الأدب في الحجاز)

بقلم الأستاذين

عبد الله عبد الجبار ، وعبد المنعم خفاجة

سيصدر

ديوان

شاعر الحب والغناء

الشاعر الحجازي الخالد

عمر بن أبي ربيعة

وسيكون هذا الديوان جديداً

في

إخراج ، وتحقيق ، وتصحيح ، وتقديم

كل ذلك بقلم

ابراهيم هاشم فلولي .

فهرست الموضوعات

صفحة

المقدمة	
أين نحن اليوم ؟	١٠
سمعة الاسلام	٢٦
الاسلام دين العمل	٣١
الرسول ، حياة محمد صلى الله عليه وسلم	٣٥
مصر والعرب والاسلام	٤٤
الحجاز واثره في الحضارة الاسلامية	٤٨
لم خلقنا ؟	٥٣
لا تقف على الحافة	٥٧
الوان التعبير	٥٩
كيف نحفظ بعروبتنا ؟	٦٧
شخصية الأمة العربية	٨٢
أأكل الرطب ؟	٨٩
عمر بن أبى ربيعة (مقدمة)	٩٣
عمر بن أبى ربيعة	٩٩
دراسة ونقد	١٣٣
ليتنا نفهم	١٣٦

اقرا في هذا الكتاب

لونا من ألوان الأدب الحجازي الجاد ، لتعرف اتجاه الفكر الحجازي المستنير .
واسلوبه في عرض مشاكل العروبة والاسلام من وجهة النظر الحجازية .
ومبلغ اسهام الادب الحجازي الصحيح في معالجتها . والزاوية التي ينناول
منها المؤلف موضوعات كتابه . وهي زاوية خطيرة جدية بالنامل والاهتمام .
وللمؤلف أسلوبه الخاص في الكتابة . وهو أسلوب حجازي مشرق . اخذ من
القديم والحديث وطبعه بطابع الحجاز في العصر الحاضر . فلا هو حضري طري
مبتذل . ولا هو بدوي جاف خشن . ولكنه أسلوب حجازي جذاب .

وعلى كل عربي مثقف أن يلم بوجهة نظر الحجاز في المشاكل الكبيرة التي
تواجه العرب والمسلمين باعتبارهم مجموعة ذات كيان خاص قائم بذاته وله
فعاليته غير المنكورة في حلق التوازن العالي . فمن الحجاز انبثق فجر
الانسانية الصادق وفي اشعة هذا الفجر عرف الانسان لأول مرة أن له حرية
وأن له كرامة . وأن له حقوقا . والحجاز في القديم وفي الحديث حصن العروبة
وملاذها وقبلة المسلمين على مدى الايام . فهل بدأ الحجاز يشرق مرة أخرى
على العالم يستهدا من نبعه الفياض الذي لا ينضب ؟ . وهل تتجه اليه
الانسانية مرة أخرى ؟ أم ستعرض منه ولو وجدت فيه ضالتها ؟

ستبحث فيك موضوعات الكتابة المتنوعة توترا فكريا . وهزة لاندري الى
أى جانب تدفعك . وسواء أكنت ايجابيا أم سلبيا فان التوتر الذي سيحدثه
فيك هذا الكتاب هو أقصى ما يبلغه الكتاب الأقوياء في نفوس القراء . وذلك
يكفي لاتجاهك الى الحجاز واهتمامك بما فيه من آراء وأفكار .

الناشر

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

